شخصية محمد على
رؤية تحليلية

د. خالد عبد المحسن بدر

يشكل الحديث عن محمد على – كشخصية إشكالية الوسط الذهبى للتحدى الذهنى – بتعبيرات أرنولد توينبى – فهو أشبه بنهر متدفق تختبئ فى تعرجاته صخور وعرة تخاف أن تصدمك فى أى لحظة ، إذا لم تكن ربانا متيقظاً ،ولكن الخوف من هذه الصخور لا يغريك أبداً بالتوقف حتى إذا كانت النهاية مفتوحة والشاطئ لن تصله أبداً ، فمحمد على شخصية مركبة تزخر بالمتناقضات التى لا تدرى هل هى بداخله أم فى الصورة الذهنية التى كونها عنه المؤرخون ؟ . وبغض النظر عن اتجاه الإجابة عن هذا السؤال . فإننا أمام حقيقة لا مناص من الاعتراف بها هى أننا أمام شخصية تستحق المحاولة مهما كان حجم الأخطاء المتوقعة فى رؤيتنا.

وتقتضى معالجة هذا الموضوع الشائك أن نفسر عنوانه ونحدد محاوره ثم نتقدم إلى التفاصيل .

لنبدأ أولاً بالعنوان : المقصود بتحليل شخصية محمد على تكوين فروض معينة عن السمات المميزة لها ، من خلال منظور علمى متعدد المداخل يستوعب إسهامات علم النفس الحديث ، وجدير بالذكر أننا لن نتوقف عن التحليل النفسى التقليدى ، كما صاغه فرويد واتباع مدرسته ، بل سنمتد إلى آفاق أكثر رحابة من ذلك .

خطوتنا التالية هى تحديد محاور هذا البحث إجمالاً : المحور الأول يتمثل فى الكشف عن طبيعة العلاقة المتبادلة بين التاريخ وعلم النفس وتحديد نقاط القوة والضعف فى تلك العلاقة ، والثانى يعالج التصورات النفسية التى شكلها محمد على

والمؤرخون عن محمد على مع بيان أوجه القصور التى تكتنف هذه الرؤية . أما المحور الثالث فهو البنية الأساسية لهذا العرض وفيه نعرض رؤيتنا عن شخصية محمد على محاولين تقديم إطار عام يبرز بعض الملامح الاساسية لهذه الشخصية دون التطرف إلى تحولات هذه الشخصية فى ضوء ما يستجد من تغيرات سياسية واجتماعية حيث لا يتسع المجال الآن لهذا الطرح .

لا شك أن التحليل النفسى للشخصيات التاريخية يعد مجالاً حديث النشأة ويحتاج إلى تآزر جهود المؤرخين وعلماء النفس معاً، وبصفة خاصة فى منطقتنا العربية . فهناك تيار متدفق من الدراسات النفسية التاريخية يفرض نفسه فى العالم الغربى .

وما زال الباحثون عندنا متخلفين عن ركب التخصصات البينية مما يتطلب تقويماً شاملاً وإعادة نظر فى هذه القضية الحيوية .

والمنطلق الأساسى فى البحث النفسى التاريخى دراسة الفرد باعتباره – ببساطة – قادراً على الإسهام فى تشكيل الأحداث التاريخية، ولن نسير مع كارلايل وتوينبى إلى آخر الشوط مدعمين فكرة أن التاريخ ما هو إلا سيرة العظماء ، فهذه قد تكون مبالغة لا ندعى تحمل مسئوليتها ، ولكننا لا نستطيع أن نلغى هذا الدور ، ولا ينطوى حديثنا على إغفال لأهمية الظروف الموقفية والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية فى صناعة التاريخ ، ولكن استثمار الظرف التاريخى فى المكان والوقت المناسبين يحتاج إلى فرد ذى قدرات عقلية متميزة وسمات مزاجية متفردة لها أساس بيولوجى ويحركها – فى اتجاه الهدف – دافع مرتفع إلى الإنجاز. ولعلنا نبتعد عن الواقع كثيراً إذ أطلقنا مسمى علم الدافعية التاريخى مجازاً على علم النفس التاريخى ولا شك أن علم النفس التاريخى.

يمكن أن يدرس سيكولوجية الجماعات، ولكن وفق منطق لا يختلف فى أسسه

كثيراً عن دراسة الفرد .

وينقلنا هذا إلى أن دراسة تاريخ الحياة يمكن اعتبارها جوهر دراسة علم النفس التاريخى .ويتحدد إطار البحث هنا فى هذا الميدان على أساس ثلاثة اعتبارات هى :

أولاً: أن المجال محدد بتوظيف علم النفس سواء كان تحليلياً أو غير تحليلى.

ثانياً : توظيف علم النفس فى هذا المجال علمى منظم ويعتمد على تطبيق النظريات السيكولوجية الشائعة فى الميدان ويتجاوز فى إطاره التصورات النفسية الدراجة التى يطرحها المؤرخون كثيرا سواء بشكل صريح أو ضمنى فى كتاباتهم التاريخية .

ثالثا : توظيف كل فروع علم النفس وتياراته فى هذا المضمار .

وجدير بالذكر ضرورة الاهتمام بعلم النفس الاجتماعى كمدخل للمعالجة ، ومحاولة اختراق التحليل النفسى الفرويدى كتيار مهيمن على الساحة إلى آفاق أكثر رحابة .

ومما لاشك فيه أن التوجهات الحديثة فى علم النفس التاريخى تهتم بالفرد فى ضوء منظور مضاد لنظرية الرجل العظيم فى دراسة التاريخ ، بالرغم من أن الاهتمام بالفرد قد يكون موحيا بذلك ، ولكن عنايتها الأساسية عناية هذه التوجهات يتجه إلى تحجيم الغموض الخاص بالبطل الأسطورى وكشف أوراقه ، سعيا إلى تحديد وزنه النسبى فى دفع حركة المجتمع والكشف عن جدلية التفاعل بينه وبين القوى الاجتماعية الناشئة على الساحة .

ولعل وجه الاستفادة الأساسى للمؤرخين من هذا الطرح تأكيد فكرة مؤداها أن هذا العظيم ما هو إلا إفراز للماضى فى اتصاله بالحاضر وأنه لا يعد نقطة

تحول مفاجئة ،و لكنه نقطة امتداد طبيعية لما سبقه . بمعنى آخر أن الدراسة النفسية ستجنبنا الدخول فى أحد الأخطاء التاريخية القاتلة وهى المبالغة فى قراءة الشخصية التاريخية سلباً أو إيجاباً .

ويمكن لعالم النفس أن يقدم للمؤرخ فئات ومفاهيم لتحليل الخبرة واقتراح فروض عن دلالة الظروف والأحداث بالنسبة للفرد فى ضوء تكوينه ، كما يتعرض عالم النفس لقضية تشكيل الخبرة الإنسانية فى ضوء تعددية الأدوار السياسية والاجتماعية للفرد ، كما يهتم بموضوع الذاكرة و تجلياتها التاريخية وتحليل الأنماط الرمزية فى التعبير ، وتفسير التناقضات ، وتحليل علاقات القوة والسلطة على المستوى الفردى بالإضافة إلى تقديم مناهج لتحليل الخبرة منها على سبيل المثال لا الحصر القياس التاريخى وتحليل الفنتازيا وتحليل المضمون فى شكله التقليدى...الخ.

وغنى عن البيان أن الاستفادة هنا متبادلة ، فدراسات المؤرخين تتيح لعالم النفس أن يربط بين روح العصر وبناء الشخصية ، كما تتيح الوعى بالسياق التاريخى للصراعات النفسية، كما تتيح لنا تحديد الدلالات التاريخية والاجتماعية الخاصة التى تتشكل فى ضوئها الثوابت السيكولوجية فى معايشتها للظرف التاريخى.

ننتقل الآن من هذه الصياغات التجريدية إلى محاولات للطرح أكثر نوعية تقربنا أكثر من موضوع البحث .

غنى عن البيان أن التحليل النفسى بمنظوره التقليدى وتشعباته قد سيطرا على المجال – شئنا أو لم نشأ – لفترة طويلة وما زالت أصداؤه قائمة حتى الآن . وينطوى تطبيق التحليل النفسى وحده على إشكالات منهجية متعددة بعضها متصل بتطبيق علم النفس فى مجال الدراسات التاريخية بصفة عامة ، وبعضها الآخر

متصل بالتحليل النفسى فى حد ذاته كنسق معرفى .

ونبدأ بأهم تلك الإشكالات المرتبطة بالتحليل النفسى وهى تبنى النموذج الإكلينيكى ، وحصر الخبرات النفسية فى منطقة اللاشعور ، وحتمية وجود نقطة تحول فى الشخصية مولدة للعظمة ، والاهتمام بالعلاقة بالأبوين كمحدد أساسى ، والتوقف عند مرحلة الطفولة وتثبيت المراحل الارتقائية الأخرى والإقلال من دورها بما لا يتناسب مع التنوع الذى يخلقه الظرف التاريخى ، أما عن الإشكالات الأخرى التى تخص علم النفس ككل فهى على سبيل المثال لا الحصر اختلاف الفترة التاريخية التى تطبق فيها النظريات النفسية عن الفترة التى نشأت فيها، وفى هذا الصدد واتصالا بهذه النقطة بالغة الأهمية يطرح بيتر جران التصور التالى : " وإذا أراد الباحث أن يتابع التحليل النفسى للشخصيات ، فيجب تعديل النظرية حيث تتلائم مع هذه الفترة التاريخية ، لقد كتب علم نفس الأنا فى العالم الغربى الحديث بلغة العلاقات القائمة داخل الأسرة النووية الحديثة " . إن إمكانية التمرد الكامل وإمكانية الوجود الفردى المتميز داخل الأسرة بعيد التحقيق ، فالأسرة الكبيرة تقوم فى هذه الظروف بتسوية العلاقات بين الأب والأم والطفل ، فليس من الضرورى أن تحدث بنفس طريقة العصور الحديثة ، لأن المفهوم الشامل عن الطفل والمراهقة وعملية النمو كانت غريبة عن عالم العصور الوسطى . فمراحل التطور النفسى تتأثر بطبيعة العصر." ويضاف إلى القضية السابقة ما يفرضه اختلاف المنشأ الحضارى للنظرية السيكولوجية فى العالم الغربى عن ذلك الخاص بعالم الشرق ، وما يفرضه ذلك على مستوى فهمنا للتنشئة الاجتماعية للشخصية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن هاتين الإشكاليتين هما الأخطر والأكثر أهمية على الإطلاق ، وقد يمكن الحل هنا فى تحليل بنية الثقافة وما تفرضه من مواضعات اجتماعية مع التحليل الدقيق لعمليات التنشئة التى تمثل أوعية ناقلة لمعطيات هذه الثقافة ، وما تحاول أن تغرسه من توجيه للشخصية على نحو معين قد يختلف نسبيا باختلاف الثقافات ، ثم

تحليل الفروق الفردية لبناء الشخصية فى ضوء درجة انصياعها النسبى للنموذج الثقافى . ولعل عجز النموذج الفرويدى التحليلى عن الصمود إزاء التباينات الثقافية الموجودة مازال مطروحا فى دراسات الأنثربولجيين ولا شك أن علم النفس الحضارى المقارن يبذل جهودا ذات شأن فى هذا المضمار لا مجال لذكرها هنا .

وما زالت جعبتنا لم تفرغ بعد من طرح المشكلات المنهجية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر نقص البيانات المتاحة عن المراحل الارتقائية الأولى فى حياة الشخصيات التاريخية، وعجزنا عن التفاعل مع هذه الشخصيات نظرا لموتها ، والتعامل مع السمات على المستوى الفينوتيبى (الوصفى) ، دون اللجوء إلى بنية مفسرة عميقة (المستوى الجينوتيبى) ، والاعتماد على البيانات التى يذكرها الفرد عن نفسه على أنها صادقة وممثلة لعالم الداخل .

ولا شك أن هناك عددا آخر من الإشكالات متعلقة أساسا بالمؤرخين – خاصة فى منطقتنا العربية – والذين يشكلون مصدرا أساسيا للمعلومات التى يمكن معالجتها نفسيا . ولعل من أهمها ضعف الاهتمام بالجوانب النفسية والأحكام الانطباعية الجزئية ونقص مصادر المعلومات وعدم دقتها وتعمد إخفاء المهم منها أحيانا، وتدخل البنية الأيديولوجية للمؤرخ فى انتقائه للمعلومات ، وغياب الرؤية النظرية تارة ، واتخاذها طابعا توفيقيا تارة أخرى ، والتناقض فى تفسير الحدث الواحد ، والبنية السردية للنص التاريخى ، والافتقاد إلى الاستفادة من التخصصات البينية والاعتماد على الذاكرة الشفهية الانتقائية أحيانا . . . الخ .

ولنتأمل هذا النص الطريف المتصل بالموضوع ولنحاول قراءة ما بين سطوره " أن قدرا مما لوحظ فى الماضى قد تذكره أولئك الذين لاحظوه ،و أن جزءا فقط مما تذكر قد سجل وأن جزءا فقط مما قد سجل حفظه لنا التاريخ ، وأن جزءا من ذلك الذى وصل يمكن تصديقه، وأن جزءا من ذلك الذى حفظ هو الصالح لأن

يكون مادة للدراسة ، وأن جزءا من هذا الصالح هو الذى فهم " !!!

لا يعنى هذا أننا بصدد محاولة منظمة لتشويه التاريخ وعلم النفس ولكن كل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد : أن حظ المؤرخين والمتخصصين فى علم النفس يتفاوت فى درجة انتباههم لهذه الإشكالات كلها أو بعضها، ووعيهم بضرورة حلها، وسعيهم إلى محاولة تحقيق ذلك ، بالإضافة إلى أن الرؤية التكاملية التى تعتمد على وجهات نظر متعددة فى تفسير الحدث الواحد قد تقربنا إلى حد كبير من الحقيقة . كما أن محاولة التحليل أكثر من مرة من قبل الباحث الواحد قد ترفع أسهمنا فى إمكانية الفهم الدقيق للحدث وملابساته .

يكفينا هذا القدر من الإبحار فى عالم العلاقات المتبادلة بين التاريخ وعلم النفس وأبعادها المنهجية حول العلاقة بين علم النفس والتاريخ .

وننتقل الآن إلى تحديد مجالى الدراسة المباشرين والمؤهلين لدراسة وتحليل شخصية محمد على ، وهما القيادة وتاريخ الحياة .

أولا : دراسات القيادة :

تقدم هذه الدراسات الإطار التنظيمى الذى يمكن أن نحدد فى ضوئه موقع الشخصية فى ممارسة السلوك وجدير بالذكر أن هذا الإطار يستوعب خمسة مدخلات الأول خصائص القائد، والثانى خصائص الأتباع ، والثالث خصائص النسق التنظيمى ، والرابع خصائص السياق الثقافى ، والخامس خصائص المهمة . وغنى عن البيان أن منطقة اهتمامنا تتركز على خصائص القائد.

ولعل الإشكال الأساسى فى هذا النوع من الدراسات أنها رغم تعددها وتنوعها فإن معظم نتائجها مستمدة من مجال الإدارة والتجارب المعملية . وفكرتها الأساسية تدور حول القيادة فى مواقف حل المشكلات ، ومن ثم فهى لا تأخذ فى اعتبارها خصوصية القيادات السياسية المتميزة ونمطها الفريد ، ولكنها فيما تقدمه

من نتائج عامة تستحق التأمل ، وتقدم لنا هذه الدراسات الفرصة لتبين ملامح عناصر الإطار التنظيمى الأخرى فى تشكيل وتعديل توجهات وسمات الشخصية والعكس.

والنوع الثانى من هذه الدراسات والأكثر انطباقا على حالتنا الدراسات النفسية لتاريخ الحياة ، وخاصة ما اتصل منها بسير الزعماء ولعل أهم ما يمكن أن يقدمه لنا هذا النوع من الدراسات فى بحثنا الحالى هو تأثير عوامل التنشئة الاجتماعية على شخصية القائد بالإضافة إلى تحديد بعض المؤشرات الموضوعية المرتبطة بتأثير القائد فيمن حوله . وتكتنف هذه الدراسات عددا من المشكلات منها التركيز على التحليل النفسى وقد سبق الإشارة إلى ذلك ، واختلاف وجهات النظر حول الشخصية الواحدة دون وجود أساس تفسيرى واضح لهذا الاختلاف ، والافتقار إلى تراكم واضح فى المعلومات يسمح بتشكيل نظريات متماسكة فى المجال ، وجدة التخصص إلى حد كبير كما أن نتائجه لم تتخط بعد مجال الفروض التى تحتاج إلى مزيد من الاختبار ، بالإضافة إلى افتقاد الجدية لدى البعض ، ومن ثم العجز عن تحديد الأوزان النسبية للقوى الفاعلة فى تشكيل الشخصية وفى قدرتها على تعديل مسار الأحداث ، بالإضافة إلى ضآلة المعلومات وقيمتها المحدودة، وانخفاض كفاءة المناهج المتاحة للتعامل مع هذه المعلومات خاصة ما يتصل بالهرمنيوطيقا وإشكاليات التأويل والاندفاع فى الأحكام والتعميمات دون البحث الكافى عن شواهد النفى ، وصعوبات التمييز بين أن تكون السمات مميزة لروح العصر أو مميزة للشخصية نفسها.

ومع هذا فالمجال واعد بالكثير خاصة ، وأنه يشهد اهتماما متزايدا فى العقدين الأخيرين، واللافت للنظر اقتحام الباحثين النفسيين والتاريخيين الغربيين لهذا المجال بخطى حثيثة ، بينما الباحثون العرب عازفين عن هذا المجال إلا فى أضيق الحدود ، وتشمل قائمة الشخصيات المدروسة فى الغرب أسماء ذات دلالة فى

التاريخ الإنسانى (منها فى مجال القيادة السياسية والاجتماعية، مارتن لوثر ، وإبراهام لنكولن و يوليوس قيصر ، ونابليون بونابرت ، والإسكندر الأكبر ، وجورج الثالث وبطرس الأكبر، وأدولف هتلر ، والمهاتما غاندى ، وريتشارد نيكسون) هذا غير قائمة طويلة من الفلاسفة والفنانين.

ويشكل هذا حافزا للعمل فى هذا المجال مع التزام الحذر المتناسب مع وضعية علم النفس التاريخى فى بلادنا !!!

نقطة الانطلاق فى هذه الدراسة أن نبدأ من محمد على نفسه ورؤيته السيكولوجية لذاته، وجدير بالذكر أن أحد المناحى الشيقة فى مثل هذه الدراسات هى دراسة الأقنعة بلغة يونج التى يرتديها الإنسان لكى يفلسف وجوده ويشكل صورته عن ذاته والمقصود بالقناع هو الشخصية العامة ، أى تلك الجوانب التى يظهرها الشخص للعالم ، أو التى يثبتها الرأى العام على الفرد فى مقابل الشخصية الخاصة ، والتى توجد قابعة خلف الوجهة الاجتماعية ، وإذا توحد الأنا بالقناع ، وهو ما يحدث كثيرا فإن الشخص يصبح أكثر شعورا بالدور الذى يلعبه عنه بمشاعره الحقيقية . قد يصبح بعيدا عن ذاته مغتربا عنها . ولا شك أن محمد على باعتباره سياسيا محنكا كان حريصا على رسم صورة معينة عن نفسه تؤكد عصاميته وكفاحه وقدرته على قهر المستحيل هذا إذا سلمنا أن أقواله هذه صحيحة وليست من نسج المؤرخين.

وجدير بالذكر أيضا أن هذا الطرح قد يكون صادقا وأننا لسنا أمام قناع بالمعنى السابق تعريفه ، ومع هذا فنحن هنا أمام اختيار لإبراز جزء من السيرة دون آخر، وخاصة وأن محمد على كان حريصا على تجنب الحديث فيما يعتبره جوانب مظلمة من حياته مما يجعلنا أمام سيرة مسيسة أكثر من كونها حقيقة واقعة.

وتقدم لنا الدراسات الحديثة فى مفهوم الذات بديلا لمفهوم القناع يتسم بأنه

أكثر مرونة وثراء ، حيث تنطوى ذات المرء على تعددية فى الأصـــوات بعضـــها حقيقى وبعضها يتناسب مع طبيعة الموقف الاجتماعى وما يصاحبه من دور يفترض أن يقوم به الفرد ، هذه الأصوات متداخلة وبعضها متجانس وبعضها متناقض وهـى منتظمة فى بنية طبقية، فبعضها مستبد ومستحوذ وبعضها يقبع فى الخلفية ، ويمثـل كل صوت من هذه الأصوات راو متخصص فى الكشف عن أبعاده وإيقاعاتـه . ولا مانع طبعا من وجود راو مركزى فى مرحلة تاريخية بعينها يفرض صوتـــه علـــى الساحة .

وجدير بالذكر أن تذكرى لخبراتى الماضية انتقائى، فالأحداث الأكثر قربـــا من الأصوات الأكثر مركزية التى أعبر عنها فى حاضرى هى التى تفرض نفســـها على الساحة .

وسنحاول من خلال عدد من الروايات التى يخبرنا بها محمد على أن نـــبرز تصوره عن ذاته المطروح أمام الآخرين أو ما أسميناه الذات المسيسة ، لننتقى الآن بعض النصوص المختارة.

قال مرة لصديقه بورنج: " لا تعجب إذا رأيتنى أحيانا عجولا قليل الصـــبر ، فقد كنت فى حياتى كلها موفقا ميمون النقيبة ، لابد أنى ولدت والطالع سعيد والنجـــم مبتسم " .

" إن حَسن الطالع أشبه شئ بالعاصفة فإنها تسير السفينة نحو الميناء بســـوعة ولكن إذا لم يكن الربان ماهرا تحطمت السفينة بسهولة ".

لنتأمل هذين النصين معا ، ولنركز على مفهوم حسن الطالع يتجه الإيحاء فى النص الأول إلى أن الطريق مفتوح لاستكمال إنجازاته التى هيأها له القدر علـــى أن يتم ذلك فى أسرع وقت ممكن حتى يجنى ثمار هذه المنح القدرية، ولكن تأمل النص الثانى يضعنا أمام إيحاء آخر وهو أن هذه الأقدار قد تنقلب عليـــه إذا لـــم يحســـن

استثمار الفرصة . ومن ثم فالأصل فى تحقيق الطموح هو اعتقاده فى مسئوليته عن أفعاله وتحكمه فيها وليس انتظار ما تجود به الأقدار.

لنتأمل هذين النصين أيضا .

" بعد وفاة والده : أخذت الجيرة تتحدث فى شأن الصبى وتندب حظه ، وتتداول قولا هكذا " ماذا عسى أن يكون نصيب هذا الغلام التعس من الحياة ، إذا افقده الدهر والديه فجأة ، وهو لا يملك شروى نقير، ولا علم عنده ولا صنعة لديه".

وبلغ الحديث مسامع محمد على وقال فيما بعد " أنى منذ سمعت ذلك القول ، عزمت عزما أكيدا على تغيير مابى ، وترويض نفسى على امتلاك زمام أهوائى ، فقد حدث لى بعد ذلك ، أنى استمريت ، أحيانا ، على الجرى ، يومين كاملين لا أتناول من الطعام إلا القليل ولا أنام إلا اليسير ، لأقوى عضلاتى وأتمرن على خشونة المعيشة . ولم يعد يهدأ لى بال حتى فقت جميع أقرانى فى جميع التمارين الرياضية . وإنى لأذكر سباقا بالمجداف قمنا به فى بحر عجاج متلاطم الأمواج ، كان الغرض منه البلوغ بالقوارب إلى جزيرة قريبة من الشاطئ. فإن أقرانى ما لبثوا أن كلوا ، وخارت عزائمهم . وأما أنا فأنى بالرغم من تسلخ جلد راحتى ، وقد كان لا يزال ناعما ، ما فتئت أجدف ، مقاوما الموج والريح حتى أدركت الجزيرة ؛ وهى اليوم ملكى " .

يتبنى محمد على منظورا تعويضيا فى علاقته بذاته على نحو يبدوا متسقا مع ما تطرحه نظرية أدلر فى القرن التالى ، والفكرة الأساسية فى هذه النظرية مؤداه أن السلوك تحكمه مجاهدة غير واعية عادة للتعويض عن العجز سواء الجسمى أو النفسى أو الاجتماعى وتأخذ مُجاهدة التعويض اتجاهات عدة :

١- مجاهدة الشخص لتنمية قدرة بديلة .

٢- التصميم على التغلب على العجز بجهد نشيط غير عادى.

٣- السعى إلى اكتشاف أهداف يمكن عن طريق تحقيقها تقليل مشاعره بالدونية.

ويمكن أن يجمع المرء بين أكثر من اتجاه من هذه الاتجاهات ومن المهم الإشارة إلى أن هذا الفعل التعويضى قد لا ينتهى بإنجاز مرحلى فقد تمعن الشخصية فى استخدام حيلة التعويض وتشتد فى نشاطها التعويضى فيتحول الأمر إلى ما يعرف بالتعويض الزائد، فاستحكام الإحساس بالنقص لدى الفرد يصحبه قدرا من التطرف فى ممارسة السلوك السابق الإشارة إليه، فيسعى الفرد فى هذه الحالة إلى البحث عن وسائل السيطرة على الآخرين وسبل تحقيق القوة و يسرع الأفراد الخطى فى المسيرة بشكل يحرمهم الإحساس باللحظة الحاضرة . وقد يدوسون على قيم أعلى وأعز فى سبيل الأدنى ، لأن الأخير فى رأيهم مصدر السلطة وتأكيد السيطرة.

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن التعويض ونعود إلى نص محمد على ونتأمل الدلالة الرمزية المتضمنة فيه ، لقد استمر الباشا فى تنمية قدراته وأهدافه البديلة لا يكل ولا يمل مستمرا فى الإبحار بلا هوادة ، ليس لكى يصل فقط إلى شاطئ الأمان ولكن ليصل إلى امتلاك الجزيرة نفسها.

ولسنا ندرى هل ذكاء محمد على وإطاره الثقافى الشفاهى وقراءته لسير الفاتحين كانت تسمح بأن يلتقط فكرة التعويض هذه ويتبناها كمفسر سلوكه ، وخاصة أن صنوه المفضل و قدوته – فى رأى الغربيين على الأقل – كان نابليون بونابرت، الذى رآه بعض المؤرخين معانيا من شعور دفين بالنقص مرتبط بالقصور فى بنيته الجسمية .

وختاما لهذه الجزئية نود الإشارة إلى إدعاء مؤداه أن محمد على فى النهاية يتنصل من الحديث عن بعض أحداث المرحلة التى تسبق امتلاكه زمام الأمور، تلك المرحلة التى كانت ملينة بالخداع والدسائس والعنف وهى فترة التجرد من القيم

النبيلة والتمسك بما هو أدنى سعيا إلى امتلاك السلطة ويقرر أن سيرته الذاتية تبدأ من استقرار حكمه فى مصر !. ولا يمنع هذا ادعاء آخر يتمثل فى حنينه إلى اللحظات المشرقة فى موطنه .

وختاما لمحاولتنا تبين بعض ملامح رؤية محمد على لنفسه كما يبرزها أملم الآخرين ننتقى هذه المنتخبات " وحيث أنى قد ربيتكم جميعا من صغر سنكم وعلمتكم القراءة والكتابة فى المكاتب وأوصلتكم إلى ما أنتم فيه من الدرجات وقبلتكم أولادا لى وصرت لكم أبا بحق وجب أنكم لا تمتعضون عن قبولى أبا لكم بل تقبلوننى وبقياس هذه الأمور صرت مؤملا بذل الجهد منكم."

" أن على أن أحكم شعبا أظهر صفات الكسل والجهل وسوء النية فإذا لم أحمله على العمل بقى عاطلا ".

" يجب أن نقود هذا الشعب كما يقاد الأطفال لأننا لو تركناه وشأنه سيعود إلى حالة الفوضى".

" إن مصر تبدوا لى دوما مثل طفل عار ، لا يجد من يساعده ويمد له يد العون ، طفل ظل قرونا غافلا ونائما ، يجب على بمفردى أن أقوم حياله بدور الأب والأم ، والسيد والخادم والقاضى والمعلم".

" هل يستطيع محمد على بمفرده أن يطعم الطفل وأن يكسوه ، وأن يمنحه الفهم وأن يرعاه حتى يصل إلى سن البلوغ ،و حتى الآن لست واثقا من قدرتى على ذلك ".

تكشف هذه النصوص عن ترسيخ لنظام أبوى فى الحكم ، هذه العلاقة الأبوية تعد منحة من الحاكم لأبنائه عليهم أن يتقبلوها ليس هذا فحسب ، بل أن هذه العلاقة موجهة لأبناء لا يملكون من أمرهم شيئا، وليس لديهم القدرة على مواجهة العالم الخارجى ، فهم أطفال عاديون يحتاجون إلى التعلم من نقطة الصفر ، وعندما

يكبرون فهم فى حاجة إلى دفعهم إلى العمل فأخص طباعهم الكسل والتراخى !!.

خلاصة ما تكشف عنه هذه النصوص أننا أمام رجل دفعته سيكولوجية التعويض وإيمانه بقدراته وتحكمه فى مصيره إلى أن يكتسب إمكانات السيطرة (التى قد تصل إلى حد التسلط) والتحكم والصلابة النفسية بمرور الوقت على نحو أهله ليكون أبا حازما ومسئولا عن بشر عاجزين عن فهم مصلحتهم وتلبية احتياجاتهم الضرورية ."

نكتفى بهذه الجولة السريعة فى عينة من نصوص محمد على آملين توسيع نطاق هذا النوع من التحليل فى المستقبل القريب .

وغنى عن البيان أننا نسعى إلى استكشاف أصداء هذه الرؤية لدى تحليلنا لما قدمه المؤرخون الأجانب والعرب من تصورات عن شخصية محمد على .

ونبدأ أولا بتقديم تصور مركز عما قدمه الآخر الغربى فى هذا المضمار ساعين إلى بلورة توجهاتهم الأساسية، ثم نعطى مساحات أوسع للمؤرخين العرب باعتبار أننا نفترض أنهم أكثر قربا من هذا الموضوع وأننا أكثر سعيا إلى إبراز أعمالهم.

وعلينا أن نتوخى الحذر فى تعاملنا مع المؤرخين الأجانب فهم وإن كانوا يظهرون أحيانا أنه أقل تطرفا فى أحكامهم من بعض العرب ، فمحاولات الذات الأوربية للتعرف على الآخر – هذا إذا سلمنا أن هناك حدا أدنى من التجانس – فى هذه الرؤية – يكتنفها بعض الأمور والتى تجعل هذه الرؤية محدودة بشروط إنتاج معينة فيما يلى بيان بالأكثر أهمية منها :

أولا : سلطة المفكرين العظماء التى من الطبيعى أن تمارس تأثيرها على مستشرقى النصف الأول من القرن التاسع بحيث تكاد أعينهم لا ترى إلا ما تعرفه وأهم هؤلاء المفكرين هيجل ومونتسيكو ومكيافللى ، وسميث

وجونز" (جهاوى، محمد ص ٦٦).

ثانيا : جهل المتلقى الأوروبى – نسبيا – بالحياة الشرقية أو معرفته السطحية بها.

ثالثا : السلطة هى المصدر الأساسى لتعرف الأنا الغربية على الآخر الشرقى ، فحرية الحركة التلقائية لم تكن متاحة بالنسبة للأجانب، ولا نعتقد أن علاقتهم بالمواطنين وحياتهم الداخلية كانت مفتوحة بما يسمح بالرؤية الدقيقة للأمور خاصة وأنهم فى النهاية غرباء.

رابعا : كانت طبيعة الدوافع الأوربية للتعرف على الشرق العربى مشروطة بأهداف متعددة منها :

أ- حاجة السلطات الأوربية لإقناع برلماناتها أو تهيئة الرأى العام فى مجتمعاتها لقبول حملة عسكرية أو عقوبات أو مساعدات اقتصادية أو سياسية كما فى حالة القناصل والمبعوثين فوق العادة فى هيئة رحالة

ب- حاجات الجمهور الأوربى للتسلية بحكايات الرفاه الشرقى وألف ليلة وليلة.

ج- تحليل بنية السلطة وعلاقتها بنمطى الإنتاج والاستهلاك فى الأقطار الشرقية.

هـ- رسم صورة للآخر الشرقى تبرز جهله وبربريته فى مقابل الآخر الأوربى المتعالى والمتميز والمسئول الأوحد عن النهضة .

و- الارتباط بمصالح شخصية مع الحاكم أو السلطة.

وغنى عن البيان أن هذا المدخل ضرورى رفضا لفكرة الموضوعية المطلقة لتعذرها ، ولكن دون الاكتفاء بأخذ دور المتفرج ووصمهم بالذاتية دون تحديد أسس البنية العقلية التى تحكم الرؤية مما يجعلنا فى موقع أفضل لفهم الذوات الراوية المنتجة لبنية الخبرة التاريخية .

وترتكز رؤيتنا للآخر الأوربى لعدد من القراءات فى تقارير القناصل الأوربيين وأعمال عدد من الرحالة والسائحين والعاملين الأجانب ودارسى التاريخ.

وتكشف هذه الرؤية عن عدد من الملامح هى : -

أولا : لا خلاف لدى المؤرخين الأجانب على كون محمد على مستبدا مع اختلاف فى التبريرات المطروحة لهذا الاستبداد، ومنها خصاله البربرية التى تشكل جزءا من طابع شخصيته الشرقية ، وانتماؤه التركى، وما يتسم به الحكام فى بلادنا ، والفوضى التى كانت سائدة فى مصر والمنطقة المحيطة فى تلك الفترة ، وظروف تنشئته غير المستقرة. ويتفاوت المؤرخون فى درجة احتكامهم إلى هذه الأسباب وفى توصيفهم لدرجة تغلغل هذا الاستبداد فى شخصيته بمعنى آخر هل هو صفه متأصلة فى تكوينه أم أن شخصية هذا الرجل لا تخلو من رقة ومشاعر فياضة .

وجدير بالذكر أننا لن نستطيع استخلاص إجابة قاطعة على السؤال الأخير فى تحليلات المؤرخين الأجانب.

وبالرغم من التباين فى توصيف أسباب الاستبداد فى حالتنا هذه، فهناك إجماع على أن الشعب المصرى هو المسئول الأول عن ذلك ، فهو ميال تاريخيا إلى التبعية والخضوع والطاعة ، كما أنه عاجز عن إدارة شئونه بكفاءة ، بالإضافة إلى ضعف طموحه ، ونقص نخوته ، وتبلد مشاعره ، ورضاه عن حالته البائسة، وغدره الواضح ، وعناده فى الالتزام بالانضباط أيا كان نوعه ، هذا غير مظاهر الكذب والنفاق والرياء ، ولا شك أن شعبا بهذه المواصفات يدفع أى حاكم إلى ممارسة استبداد قامع سواء كان محمد على أو غيره ، ويفضل بناء على ذلك أن تكون شخصية الحاكم غريبة عن أفراده ، وقادرة على أن تبسط نفوذها عليهم بالحديد والنار !!!، صحيح أن هذا الشعب معذور وذلك لتصرفه لسنوات طويلة وممتدة من العبودية ، ولكن الحاكم أيضا له عذره فى أن تتشكل نفسيته على هذا

النحو ، ورغم التسليم بإمكان تبدل الأحوال النفسية لهذا الشعب ، ولكن ذلك يحتاج إلى وقت وإلى حاكم قوى لإحداثه!

ثانيا : هناك اتفاق أيضا على طموحه الفردى الذى لا يعرف الحدود ، واتسامه بخصال التجار ، وانفتاحه على الغرب (تكنولوجيا فقط)، ولكن دون حب عميق للغربيين ، وتسامحه الدينى ، وتبنيه الإصلاح كقيمة ، وحاجته الشديدة إلى المعرفة العملية، وقدرته العقلية المتميزة ، واهتمامه بمعرفة سير القادة والفاتحين وإعجابه الخاص بنابليون وإقتدائه به ، وقراءاته البارعة لما ينتوى الآخرون عمله (من خلال وجوههم!) ، ولباقته مع الأجانب ، وحصافته فى الاعتماد على ذوى الفطانة منهم ، وأبوته للمصريين ، وانتمائه إلى مشروعه الشخصى فقط ، واحتفاظه بهويته التركية الشرقية ، ورؤيته الطبقية للمصريين ، ودافعيته المرتفعة للإنجاز ، وجاذبيته البدنية (والتى تتركز فى عينيه بصفة خاصة) ، وطاقته الجسمية الهائلة، وقلقه وتوتره الشديدين ، وإصابته بالجنون فى نهاية حياته !.

ثالثا : لا تنفى أوجه التشابه المطروحة آنفا بعض التباينات التى تستحق الذكر، ولكن دون الدخول فى تفصيلات قد تخرجنا عن إطار الموضوع ، وسنحرص على انتقاء ما يتصل بجوانب الشخصية .

أ- بالغرم من تسليمنا بأنه لا خلاف فى تقدير حدة ذكاء محمد على ، ومهارته الاجتماعية فى التواصل مع الآخرين . فإن البعض يرى أن هناك مبالغة فى ادعاء تفوقه العقلى الذى يصل إلى حد العبقرية ، والطريف أن الذين يقرون هذا التميز يعزونه إلى الشق الأوروبى (الإغريقى) فى تكوينه ، وأن هذا التفوق قد أعاقه صفاته البربرية التى أسهم فيها الجانب الآخر من تكوينه المنتمى إلى الشرق الإسلامى .

ب- النقطة الخلافية الثانية والمهمة تتجسد فى درجة وضوح الهدف السياسى

المرتسم فى مخيلة محمد على ، التوجه الأساسى فى رؤية الغربيين هو سعى محمد على إلى ملكية مصر له ولأولاده من بعده ، وتوسيع حدودها قليلاً شرقا وجنوبا تأمينا لمركزه ، أنه الحلم السرى لمحمد على ، ويمتد هذا الحلم عند البعض إلى الإمبراطورية العثمانية نفسها ، وهناك من يرى أنه لا توجد أحلام متبلورة منذ البداية ، ولكن تزايد نفوذ محمد على وازدياد قوته تدريجيا جعله يفكر فى زيادة مكاسبه وبالتالى استمراره فى حكم مصر . . . وهكذا .

جـ- أن جاذبية محمد على التى تشع من عينيه أمر مفروغ منه فى كتابات المؤرخين فيما عدا استثناءات محدودة ترى هذه الجاذبية وهما ليس له ما يبرره ، فعيناه لا تشع منهما سحر أخاذ يميز الغزلان ، ولا تحمل وهج عيون الصقر النارية، وليس فيها ملامح العاصفة وقت هبوبها ، ولكن ما يمكن أن تعكسه عيناه إحساسا بعدم الاستقرار لصاحب متجر يحاول الانتباه لكل من يحاول أن يسرق أو يختلس بضاعة لا قيمة لها من محله ، ولا تكشف نظرة عينيه عن أى تميز عقلى أو أخلاقى . (بالإضافة إلى أن الترتيب التشريحى للجمجمة يؤكد هذا المعنى) .

رابعا : غنى عن البيان أن محاولات الوصف السيكولوجية السابقة لا تكشف عن طرح علمى بالمعنى المفهوم، ولكن لا يمنع هذا من محاولة تأسيس خلفية نظرية لهذه الصفات فى ضوء التأملات الفلسفية المطروحة وبعض التصورات الشائعة التى يظن أنها علمية فى تلك الفترة ولدينا أمثلة عدة فى هذا الصدد ، الربط بين عصبية محمد على ونظرية جالينوس فى الشخصية ، والتى يمكن فى ضوئها وصفه بأنه دموى المزاج ، ومحاولة دراسة صلابته النفسية باحتمال كونه من أصول تركية ، وربط ذكائه ودهائه باحتمال كونه من أصول فارسية ، وربط عبقريته السياسية بأصوله الإغريقية التى يحكمها المولد والمنشأ ، يضاف إلى ذلك السعى إلى نفى تميزه غير العادى بناء على علم فراسة الدماغ (الفيزنولوجيا) أو الربط بين الخصائص النفسية للإنسان والتشكل الخارجى للجمجمة (البنية التشريحية

لها) ، حيث تفترض هذه النظرية افتراضا خاطئا مؤداه تموضع دقيق للقدرات العقلية وإسقاط ظاهر لهذه التموضعات على الجمجمة .

خامسا : " الآخر الأوروبى" الوحيد الذى اهتم بوصف سمات محمد على النفسية وصفا تفصيليا تشريحيا – فى حدود معلوماتنا – هو كلوت بك ولعل ذلك مشروط جزئيا بخلفيته الطبية ، والميزة الثانية لكلوت أنه كان معاصرا لمحمد على ، والميزة الثالثة أنه يوظف نظريات ينظر إليها على أنها علمية فى ذلك الحين (نظرية جالينوس عن الأمزجة الأربعة) . والميزة الرابعة اعتماد عدد كبير من الدارسين على أوصاف محمد على ، ولكن يعيبه أنه كان أحد أعوان الحاكم المقربين ، ومن ثم هو يستحق قدرا من التأمل : يسرف كلوت بك فى وصف البنية الجسمانية لمحمد على، ويبدو أن ذلك مرتبط بفكرة شائعة فى ذلك الوقت هى دلالة هذه الأوصاف الجسمية على أبعاد نفسية معينة ويرتبط ذلك بالفراسة وهى معرفة سمات الشخصية من طريقة رؤية أو إدراك أو دراسة ملامحها الخارجية المحسوسة ، مثل تكوين الرأس أو شكلها ، وملامح الوجه وأجزائه ومكوناته المختلفة ، وشكل الجسم ونسب أجزائه ومكوناته ، وترجع نظرية الفراسة إلى الفيلسوف اليونانى أرسطو ، وخضعت لعدد من التطورات فى القرن الماضى ، ولكن لم تثبت الدراسات العلمية الجادة صواب هذه الادعاءات .

ونعود الآن إلى وصف كلوت بك بعد هذا الاستطراد المبرر ونشير إلى أنه يرى أن الخصائص البدنية لمحمد على تدفعنا إلى استنتاج اتسامه بدقة الفكر ورقة الشعور وشرف الميول والجاذبية والقوة والضبط والنظام العسكريين ، ويعقب هذا الوصف الجسدى الشيق ذكر عدد لا يحصى له من السمات ، اللافت للنظر فيه أنه بعيد عن الصورة الشائعة فى مواضع كثيرة خاصة ما اتصل برقة الإحساس إلى حد البكاء وحنانه الأبوى وحرصه على الصدق بعيدا عن التكتل وتعاليه على الترهات

والأباطيل الموجهة ضده .

سادسا : من نافلة القول الإشارة إلى أننا لسنا فى كل ما سبق أمام سمات شخصية بلغة علم النفس الحديث ، صحيح أن كل ما طرح له صلة بتكوين الشخصية ويمثل صفات لها ولكنه يختلط بما يمكن أن نسميه بالبنية الأخلاقية للشخصية وليس المزاجية (ويستثنى من هذا القدرات العقلية).

ننتقل الآن إلى المحور التالى وهو الخاص بالمؤرخين العرب ، سواء كانوا متخصصين أو هواة – وهنا لن نسعى إلى استخلاص صورة إجمالية بقدر سعينا إلى طرح أفكار أكثر تفصيلا مع اهتمام أكبر بأسلوب الكتابة التاريخية فى هذا المضمار ومحاولة عرض نماذج مفصلة قد توحى بفروض يمكن توظيفها فى رؤيتنا الشخصية التى ستعتمد دون شك على المادة السابقة .

ونبدأ أولا بالمعاصرين لمحمد على ونتقى نموذجين على قدر كبير من الأهمية لأنهما يسيران فى رؤيتهما لمحمد على فى اتجاهين متعارضين – وهما الجبرتى والرجبى – بالإضافة إلى كونهما معاصرين له ، أولا : نبدأ بدوافع الكتابة لدى الرجلين . يدعى الجبرتى أنه لم يقصد بجمع كتابه عجائب الآثار خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ، ولم يداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم . بينما ينص الرجبى صراحة على أنه كتب كتاب تاريخ الوزير محمد على باشا بتكليف من شيخ الأزهر محمد العروسى على أن يكون الغرض منه مخبرا عن بعض آثاره مظهرا ماله من مظهر الهمم ورفعة منارة ، وذلك على طريقة الإجمال لأن تفصيل ذلك يعجز عنه فحول الرجال.

ويصف الرجبى محمد على بأنه صاحب الأخلاق الكسورية والأخلاق الجميلة البهية وأنه المحمود صنعه لدى كل إنسان ، بادى النتائج ومظهر المراحم وهو الصدر الذى جمع البأس والندى وطلع على الأقطار بدر هدى إلى غير ذلك

من صيغ المدح والإطراء ، بينما نجد الجبرتى يصفه بأنه شـــاب مغـرور جـــاهل وظالم غشوم .

ويرسم الرجبى صورة وردية لكرم محمد على ووفاءه – الذى فـــاق حـــاتم الطائى– ووفاءه بالوعد وأن من أخلاقه وصفاته المحمودة أنـــــه " يعطـــى الكثـير الجزيل لمن صنع فى خدمته الشئ التافه القليل ، بينما يضعه محمد على فى موقـف لا يحسد عليه فهو من طبعه الحقد والحسد والتطلع لما فى أيدى الناس ، وأنه غـدار لا يفى بعهد ولا بوعد ولا يبر فى يمين ولا يصدق فى قول ، ويحدثنا الجبرتى عـن تدين محمد على وإرجاعه الحكم فى الأمور جليلها وحقيرها إلى الشـــرع الشـــريف بينما يذكر الجبرتى أنه بعيد عن ذلك وأن دينه شكلى ، فهو من ناحية قد فتح دينـــه لنصارى الأروام والأرمن فترأسوا بذلـــك وعلـــت أســـافلهم ، بالإضافـــة إلـــى أن المسئولين فى دولته يشجعون على الربا ، وهناك مناداة عليه جهاراً فى الأسواق من غير احتشام ولا مبالاة من ناحية أخرى .

ويشير الرجبى كره محبة محمد على لسفك الدماء فتلك من أخلاقه الجمليـــة التى تميز بها عن سائر الأمراء والملوك والوزراء ليس هذا فحســـب فـــهو يعفـــو وصفح؛ فهو يعفو بكثرة عن المذنبين ويتجاوز عن إساءة المسيئين ولو أردت عـــدد الأشخاص ممن حصل له ذلك لأجهدت الأنفاس ، وملأت القرطاس ولا سيما مـــن كانوا متصفين بعداوته ، ومتوسمين بمخالفته، فإنهم لما التجئوا إليه ســـامحهم مـــن زلاتهم ، وستر عنهم عورات جناياتهم ، وأعطاهم الأموال الجزيلـــة . . . الـــخ ، ولكن الجبرتى يشير بوضوح إلى حبه للشوكة ونفوذ أوامره فى كل مرام واصطفائه ومحبته موجهة إلى الذين لا يعارضونه ولو فى جزئية، وإلى الذيـــن يفتحـــون لـــه أبواب الدراهيم والدنانير أو يدلونه على ما فيه كسب أو ربح من أى طريق أو سبب من أى ملة كان.

لا شك أننا أمام صورتين متناقضتين إلى حد كبير ، ويبدو الجبرتى فى موقف أفضل لأن الرجبى لا يحيد عن الخط أبدا ، بينما الجبرتى رغم كل ذمه قد يلفت منه مضطرا قدر من الصفات الإيجابية ، فيذكر الجبرتى أنه كان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشئ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه وإن كان ذلك يوقع الجبرتى نفسه فى تناقض جزئى . وبالرغم من أن الجبرتى مؤرخ متمكن من أدواته بالمقارنة بالرجبى ، فإننا لا نقف مع وجهة النظر القائلة بأنه يرصد ويحلل وينتقد ما يراه موجبا للنقد ويؤيد ما يراه مستحقا للتأييد من وجهة نظره . وأنه يقدم صورة متوازنة لحسناته وعيوبه صحيح أنه لم يكن مؤرخا حكوميا ولكن هل يرجع ذلك إلى أنه مؤرخ الشعب أم إلى أن الحاكم لا يعجبه ![1] ، فذم محمد على يفرد له مساحات واسعة تتجاوز الحد المعقول ، فهو لم يكن بهذه الموضوعية المتجردة ، وخاصة وأنه يبالغ مثلا مبالغة ممجوجة فى مدح الألفى، ولا يعترض على استعانته بالإنجليز ولا يوجه اللوم له فى هذا العدد رغم أنه يعترض على محمد على فى نفس القضية (استعانته بالأروام والنصارى . . .) ولعل ذلك مرتبط جزئيا بتضور الجبرتى بإلغاء الالتزام ، أو فرض الضرائب على أملاك الأوقاف ومصادرتها الأمر الذى فسر على أنه تعدى ليس فقط على الحقوق المكتسبة بل ربما على أحكام الشريعة وأساليب الحكم الإسلامى خاصة وأن الجبرتى كان من السراة والمساتير وبالرغم من أن الرجبى يقدم نصا مغلقا لا يطرح غير بعد واحد فإن قراءة ما بين السطور قد تسمح لنا بقراءة مختلفة فمثلا لا يشير الرجبى من قريب أو من بعيد إلى أن من صفات محمد على حب المشورة أو أنه بحاجة إليها ، كما أن عظيم الجلالة وكبير الهيبة وشديد القوة لابد أن يكون مستبدا متحكما وكل صفاته الكريمة هى فى الأساس منحة منه ، قادر على أن يهبها لمن يشاء . . . وهكذا.

---

[1] وتصريح الجبرتى نفسه المباشر بأنه ليس مؤرخ السلطة قد يؤخذ ضده .

وخلاصة القول فيما يتعلق بهاتين المحاولتين أن لهما السبق والريادة فى هذه الفترة التاريخية ولا ننسى أن ننوه أن المدخل الوحيد للشخصية مازال فى مجمله السمات ذات الطابع الأخلاقى فى محتواها ومبناها ، والتى تأخذ طابعاً إنشائياً أحياناً دون تحديد نظرى أو إجرائى للمفاهيم .

ننتقل الآن إلى الجهود الأكثر تطوراً فى هذا المضمار، والتى تمت بعد فترة محمد على، والإشكالية الأساسية هنا هو أن التاريخ نتاج جزئى للسلطة السياسية القائمة بغض النظر عن مستوى الوعى والعقدية الممارسين فى هذا الإطار ، والأمر يبدو أحياناً أكثر فجاجة مما يطرحه الغربيون، فقبل ثورة يوليو كانت هناك خطوط حمراء يصعب تعديها فى الحكم على محمد على، وبعد ١٩٥٢ ترك العنان للهجوم عليه باعتباره رائد الأسرة العلوية . وغنى عن البيان أن هناك محاولات جادة لتقديم رؤى تتجاوز الانخراط فى الذاتية المفرطة ، ليست منفصلة عن تصورات أيديولوجية تحكم تكوين المؤرخ وتنشئته ولكنه على الأقل يستطيع التعامل معها جزئياً وتعديل مسارها وقبل أن نتقدم إلى هذه الجزئية نود الإشارة إلى أن هناك اهتماماً أكبر بسمات الشخصية النفسية فى حدود المتاح من معلومات ، وتراجع هذا الاهتمام فى العصر الحديث ، ولعل هذا ذا صلة بالانتقادات الموجهة إلى نظرية الرجل العظيم وبالاهتمام المبالغ فيه بدور الحاكم الفرد وبما يمكن أن يحدثه من تأثير – وبالرغم من أن هذا الأمر ما زال قائماً حتى الآن فى بلادنا ولكنه ليس بنفس القدر السابق.

وهنا تلفت نظرنا محاولتان مميزتان فى هذا الإطار وتميزهما كما ذكرنا نابع من عنايتهما بالملامح الشخصية وظروف التنشئة الأولى وهما محاولتا جرجى زيدان والياس الأيوبى.

نبدأ أولاً بمحاولة جرجى زيدان ولا شك أن الطرح هنا أكثر رصانة فى

تحديد السمات النفسية ، وهو ينطلق أساساً من الوصف الجسدى المفصل – وقد يكون متأثراً فى ذلك بكلوت بك فمحمد يستمد منه معظم صفاته ويضيف أبعاداً أخرى ذات مغزى فهو يمشى ويجعل يديه متصالبتين وراء ظهره غالباً وعلى الخصوص إذا مشى فى داره مفكراً فى أمر وكذلك كان يفعل بونابرت (إما إن هذه الصفة من صفات العظماء فى نظر زيدان أو أنه يرى اقتداءه وإعجابه بنابليون قد وصل إلى هذا الحد) ، وهو يرى كما يرى كلوت بك أن الباشا يتحرى البساطة والتواضع رغم هيبته . فلباسه واسع لا يتميز به عن بعض أتباعه، وكان يكره التفاخر الحاشية ، ولا يتقلد السلاح إذا جلس بل فى يده العطوس والمسبحة يتلاهى بهما ، وهو لا يأنف من مجالسة صغار الضباط واللعب معهم البلياردو الضامة ، وهو أب حنون وصديق مخلص ونصير مسعف ، وأثر عليه فقد عدد من أولاده حتى غلبه الخرف (محاولة لتحليل أسباب جنون محمد على فى النهاية) ، شرع يتعلم القراءة والكتابة وهو فى الخامسة والأربعين وهذا يكشف عن قدراته العقلية المتميزة بالفطرة والحذاقة والقدرة على المهام السياسة (ومع ذلك فلكاميرون رأى آخر مختلف فهو لا ينكر تمتعه بهذه القدرات ولكنه يرى أنه فى ظل استمرارها دون صقل تعليمى فهذا قد يجعل حساباته طويلة المدى مشوشة مما قد يؤدى فى النهاية إلى الخسارة بدلاً من المكسب خاصة إذا تعامل مع شعوب أكثر تعليماً وتحضراً) . كان سليم القلب (هل معنى ذلك أنه لا يعرف الحقد والحسد كما يذكر الجبرتى الذى يؤكد هاتين الصفتين) .

وكان يلقب بمبيد المماليك أو مصلح الديار المصرية (وكان الإبادة صنو للإصلاح) سريع التأثير لا يعرف الكظم، وينقاد بدسائس المفسدين (قد يكون ذلك متأثراً بمزاجه الدموى كما وصفه كلوت بك) ،يرتاح للتكلم عن سابق حياته وخاصة تلك الجوانب التى تبرز عصاميته (وليس التى تعبر عن قسوته) ، كان لديه حاجة ملحة إلى المعرفة خاصة ما يتصل بالجانب السياسى منها، وخاصة ما يرد فى

الجرائد والصحف ، كانت هواجسه السياسية تقلق راحته فلا ينـــام إلا يســـيراً، ولا ينفك متقلباً من جانب إلى آخر، ويعانى من شهقة مرتجفة أثناء نموه أصيب بها فـــى حملته على الوهابيين على أثر راعب شديد (تسليم بوجود وساوس قهريـــة وشـــعور بالغ بالتهديد) ولكن هذا النوع من النوم غير المستقر لم يضعف من طاقته (لاشـــك أن النص السابق وخاصة نهايته ينطوى على استبصارات سيكولوجية بالغة الأهميـــة : فيه تحليل لخصال الزعماء ومناطق التشابه بينهم – محمد على ونابليون – وفيـــه محاولة للكشف عن أسباب الجنون، وينطوى أيضاً على محاولـــة لدراســـة تـــأثير الظروف الصادمة على الوظائف والعمليات النفسية ، كما أنه يلقى الضـــوء علـــى طبيعة المزاج ويكشف علاقة إلحاح الوساوس القهرية بإمكانية النوم ، كما يطـــرح ما يقترب من النمط الوسواسى فى الشخصية بلغة علم النفس الحديث فالمشى بـــلا هوادة أثناء التفكير ودوام التفكير لدرجة العجز عن النوم مع التوتر الزائد ، كل هذا يؤكد وجود نمط شخصية يعانى من الوساوس القهرية ، ويسمح لنا هذا الحديث على الأقل بتبين ملامح إنسان مثل بقية البشر يعانى من القلق ويتأثر بـــآراء الآخريـــن ويمكن أن يتفاعل بتلقائية مع الآخرين من مواطنيه (بغض النظـــر عـــن مشـــاعره الداخلية) ودون أن يقلل هذا من عظمته ، ويحدد بعد ذلك زيدان الملامح الأساســـية التقليدية لتنشئته الاجتماعية والتى وردت فى كثير من الكتب منها : يتمـــه وتحديـــه لواقعه الأليم وتربيته تربية صارمة فى بيت غريب وتعلم ألعاب القـــوة وإظـــهاره مهارة فى جباية الضرائب وتحصيل الأموال واشتغاله بتجـــارة الدخـــان واكتســـابه خبرات الحياة الناضجة على يد صديق فرنسى . . . وهكذا . ويقدم فى هذا الإطـــار نصاً مطوراً لمحمد على سبق الإشارة إليه يؤكد معنى العصاميـــة أو ســـيكولوجية التعويض المذكورين قبلاً .

وتبدو ظروف التنشئة أكثر وضوحاً وبتفصيلات أخرى أكثر ظـــهوراً فـــى محاولة الياس الأيوبى وإن كانت تتسم بأنها أقل انضباطاً والتزاماً بكثير من طـــرح

جورجى زيدان ، فلا شك أن الأخير يعطى محمد على حقه من المدائح وخاصة فى حرصه على ذكر محبه المصريين والأجانب له بمآثره ، وقد يكون فى ذلك بعض المبالغة التى تحكمها نشأة زيدان فى كنف الأسرة العلوية وباعتبار محمد على أول أمير مسلم شمل المسيحيين برعايته وحمايته ومودته ولكن هذه المبالغة تقل كثيراً عما يطرحه الياس الأيوبى !!

ولنتأمل ما يطرحه الأديب المؤرخ الياس الأيوبى والذى كلفته دار الهلال أن يجمع فى رسالة متوسطة الحجم سيرة محمد على وأعماله وآثاره لتكون لأبناء هذا الجيل هدياً ونوراً ، ثقة فيه وتقديراً له لحصوله على الجائزة الأولى التى منحها ملك مصر فؤاد الأول لأفضل كتاب يكتب عن تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل (إدارة الهلال ١٩٢٣) !!.

يستهل الكاتب رسالته ببيان عن مولد محمد على فى مقدونيا وطن الإسكندر الأكبر ، وفى مدينة قوله أولاكافالا (قبل أن يحرف اسمها) ولد الباشا فى هذه المدينة فى سنة من أخصب سنى التاريخ الحديث فذلك ولدت فيه شخصيات بارزة فى ميادين العلوم والأدب والسياسة ولعل أهمها نابليون بونابرت ، وغنى عن البيان أن هذا الميلاد يدخله مبدئياً فى مصاف العظماء ، والمصدر الثانى لعظمته حلم رأته وفسره العرافون وأكدوا من خلاله أنه يبشر بمستقبل عظيم لثمرة بطنها والمصدر الثالث عصاميته وتحميس أمه له على اجتياز الصعاب بعد وفاة والده وهنا ينعزل محمد على دون أن يدرى أحد ويدرب نفسه تدريبات قاسية على مواجهة متاعب الحياة حتى لا يشعره أحد بيتمه وعجزه ، ثم يعود مرة أخرى أقوى قادر على صياغة الحياة من حوله على نحو أفضل (لعل هذا يبدو متفقاً جزئياً مع فكرة أرنولد توينبى عن الانسحاب المؤقت من عالم الآخرين أن بالأحرى تصوراتهم ثم مفاجأتهم بالعودة فى شكل جديد أكثر قدرة على تحمل المسئولية وأكثر فاعلية فى إحداث التغيير المنشود). والمصدر الرابع لهذه العظمة وفاة أمه فى السادسة، وبالتالى

لامناص له من استكمال مواجهة الحياة بعزم لا يلين، وهنا يضعه الأيوبى فى مصاف الأنبياء لنتأمل هذا النص.

"فبات محمد على يتيماً وحيداً ، يرى الدنيا حوله كأنها قفر مقفر ، ولا يدرى ما المصير! ما كان أشبه حاله – إذ ذاك بحال فتى آخر سبقه إلى الوجود بنحو ألف ومائتى سنة ، فيتم من أبيه وهو فى بطن أمه (وهذا لم يحدث فى حالة محمد على)، ويتم من أمه وهو فى السادسة من عمره فبات والله وحده كفيله ونصيره.

والمصدر الخامس ، شخص فرنسى اسمه ليون كان على رأس محل تجارى فتعهده بالنصائح والإرشادات الثمينة وبالحب الأبوى مما دفعه فيما بعد إلى حب الفرنسيين والتعلق بهم.

والمصدر السادس نبوءة شيخ وقور جاوز السبعين بأنه سيصبح حاكماً على مصر وظلت هذه النبوءة والحلم الخاص بأمه مصدراً مستمراً لإلهامه وتشجيعه على أعمال الفروسية وقيامه بجلائل الأعمال إلى الحد الذى تبدت معه شخصية محمد على فى أتم حقيقتها ، وتظهر معدن نفسه إظهاراً جلياً : فنراها مزيجاً عجيباً من تروٍ سريع ، فإدراك سريع ، فعزم سريع ، فإقدام جسور ، فشجاعة نادرة .

المصدر السابع للعظمة : زوجته التى كانت طالع سعد ، كما كانت أمنا خديجة رضى الله عنها طالع سعد على نبينا (صلى الله عليه وسلم).

والمصدر الثامن : إقناع الشيخ الوقور له بالذهاب إلى مصر و مهارته فى حسم صراعه بين البقاء والاستقرار فى الوطن أو الخروج إلى مستقبل ما زال فى علم الغيب بالنسبة لمحمد على .

هذه الحكاية التى حاولنا أن نعيد تنظيم أفكارها السردية أقرب إلى قصص السندباد البحرى من أن تكون رؤية منطقية لمصادر تكوين وعظمة قائد متميز !!!

ولكننا ذكرناها لأنها تظل للأسف نوعاً من الكتابة التاريخية علينا أن نتعامل معه.

ولعل الجزء الخاص بوصف محمد على أفضل قليلاً، وفيه مساحة أكبر للتعامل معه كإنسان ويستهل هذا الجزء بالوصف الجسدى كالعادة . ولا يختلف كثيراً عما ذكر فى نص جورجى زيدان، ولكنه يضيف أبعاداً جديدة إلى ملامح شخصيه ، الجميل فيها أنه يستشهد بوقائع تثبت صحة ما يقول، منها حرصه على الطابع الشرقى فى معاملاته ، وتجنب الإخلال بالعادات الشرقية، وسرعة تأثره بالمثيرات المباغتة ، وشدة ميله إلى النساء وكبر شغفه بهن وشغفه بالمجد والمفسر لاهتمامه بما يقال عنه وتألمه من الانتقادات الموجهة ضده (ولعل كلمة الشغف بالمجد هى البديل المخفف للبارانويا أو الشعور بالعظمة) وهو يفسر اضطراب نومه بكثرة الحوادث الجسام التى مرت به، وانفتاحه على الآخرين من المقربين ، ومهارته فى الرد على التساؤلات بما يناسب الموقف ، وتساهله فى الصفح عن طيب خاطر ، على أن زمام هواه كان يفلت أحياناً من يده ، فيندفع مع تيار انفعاله اندفاع الرجل المستبد بلا تعقل (إشارة واضحة إلى التقلب الانفعالى) ، ورفضه للاعتقاد فى الخرافات والخزعبلات (ونحن نقول رداً على الأيوبى هذا صحيح إلا ما كان منها متصلاً بالأحلام والنبوءات وسنة الميلاد !!!) وبره بمواطنيه المقدونيين، وإعجابه الكبير بالإسكندر الأكبر ، وانتماءه العميق إلى مصر ومتيقظاً تيقظاً غريباً لسد كل باب قد ينشأ عنه تداخل أية دولة أوروبية فى شئون البلاد الداخلية.

ولعل أهم النصوص اللافتة لنظرنا فى أطروحة الياس الأيوبى وسنعود إليه فيما بعد " كان بطبعه ميالاً إلى الإثره والعنف ، ولكنه كان يدرى كيف يشكم ميوله، ويسير بمنتهى الفطنة والمهارة فيما يرسمه لنفسه من الشئون " ، كما أن أكثر النصوص إثزاناً بالرغم من طابعه التبريرى " ولا يسع المؤرخ المنصف ، مع التسليم بأن الله وحده المطلع على النيات إلا الاعتراف بأن أعمال محمد على إن

أفادته قبل الجميع وفوق الجميع ، فقد أفادت البلاد فائدة لا يمكن أن نجد لها مثيلاً إلا إذا حصدنا مجارى التاريخ وعدنا إلى أيام الفراعنة الكبار . ولئن اكتنفتها مظالم ومغارم كثيرة – ودخل فى القاعدة التى أقيمت عليها مزيج كبير من الإثرة والاستبداد – كاحتكار محمد على الاستغلال الزراعى والاتجار بمحصولات البلاد ، فإنما كان ذلك لأنها أعمال إنسان ، ولا يمكن ألا يمتزج الشر بالخير فى أى عمل يعمله البشر، والشر ممتزج بالخير امتزاجاً كبيراً فى طبيعة الوجود ذاتها ، على أن الشر الفردى المرافق للخير والممزوج معه لا يلبث أن يتلاشى ويزول ، وأما الخير فيبقى إلى الأبد ، وهذا هو الذى يحبب إلى الإنسان الحياة " .

ونود الإشارة هنا إلى عدد من الملاحظات :

١- تمدنا هاتان الدراستان بمعلومات تمثل المادة الخام لتشكيل فروض علمية منضبطة يمكن اختبارها عن شخصية محمد على .

٢- أن معظم المحاولات التى تلت ذلك وتعاملت مع سمات الشخصية ما هى إلا تنويعات متباينة على لحنى جورجى زيدان والياس الأيوبى (المتشابهين أصلاً إلى حد كبير).

٣- وهناك أيضاً عدد من الملامح المميزة لهذه المحاولات إجمالاً نستعرضها فيما يلى:

أ- أن دراسى التاريخ المتميزين والمؤرخين البارزين لم يفلتوا من براثن الرؤية المتميزة والمضخمة لأعمال محمد على ولصفاته، فشفيق غربال المقرب إلى الأسرة المصرية يرصد ما هو إيجابى بدقة ويبرزه فمحمد على – يقتبس هنا من رفاعة الطهطاوى أن محمد على مقدام ، صبور ، محب للحركة ، كاره للكسل والبطالة ، قوى الفطنة ، سريع الإدراك وليس فى هذا مشكلة فتلك صفات مميزة لمحمد على ولكن المشكلة تكمن فى تبرير ما هو سلبى فمذبحة القلعة التى تكشف

عن أعنف شكل من أشكال التسلطية يمكن توقعه، يسهل عزوها بسذاجة إلى الزعماء الألبان ، فلا يمكن للباشا أن يقوم بذلك فهو يمقت المذابح ويستنكر الوحشية فى كل مظاهرها.

ب- هناك مشكلة لدى المؤرخين العرب هو إحساسهم بالأزمة إزاء الأحداث التى يمكن اعتبارها وصمة خاصة إذا كانوا متعاطفين كلياً وجزئياً مع المسئول عنها وبالتالى لابد من تبريرها حتى لا تختل الصورة العامة فمثلاً مذبحة القلعة لابد أن تبرر فكيف يمكن أن تستوعب شخصية مصلح قدم لمصر إنجازات متميزة هذا التناقض داخله ، تتعدد المبررات والتالى فهو إما غير مسئول عنها بل ضباطه الألبانيين ، أو أن المماليك تأمروا عليه أكثر من مرة، فاضطر أن يفعل بهم ما فعله، أو أنهم كانوا الحائل بينه وبين جهوده الإصلاحية ، حتى القول السائد بأن ذلك كان سمة الحكام فى هذا العصر فإن هذا لا ينفى حدوث هذا الحدث على هذا النحو المأسوى وأنه خطأ تاريخى أضر بالبنود النفسية للشعب ، وأن ذلك فى حد ذاته مثل إعاقة لجهود محمد على الإصلاحية على أن تمضى فى خطها المرسوم حتى النهاية.

وأن درجة معاناة الحاكم من هذا الحادث على المستوى النفسى والاجتماعى لم تكن هينة، والأفضل فى نظر الباحث الدخول من هذه المنافذ بدلاً من محاولة طمس معالم الجريمة .

جـ- أن تكون صاحب رؤية متسقة حتى لو كانت تحكمها رؤية أيديولوجية أو تحيزات شخصية، فهذا أمر يمكن استيعابه عن أن تتذبذب الرؤية دون مبرر واضح ودون أن تكشف عن تطور ملموس فى التصور فحسين مؤنس فى كتابه الشرق الإسلامى فى العصر الحديث يسجل لمحمد على فطنته والتى قادته إلى أن يدبر للمماليك المذبحة المشهورة ، فقد تعذر عليه الاعتماد عليهم وشعر أنه لا يوجد

حل معقول فى شأنهم فلم يكن له بد من الخلاص منهم.

وفى رؤية أخرى لنفس الكاتب فى كتابه أحاديث منتصف الليل تتحول الفطنة إلى انتهازية الثعلب وتصبح رأس محمد على فى نفس مقام هؤلاء المماليك فهو ثعلب يراوغ ، وأصبح هذا الفعل الاضطرارى تعبيراً عن غدر وخسه.

د- هناك أزمة أيضاً لدى بعض المؤرخين المصريين المؤيدين لتوجهاته الإصلاحية فى ضرورة تبرير استبداد محمد على المفرط وبعضهم يتفق مع الأجانب فى أن الشعب المصرى يحتاج إلىَ الحزم والقسوة أحياناً لكى يتعلم (وهذه رؤية محمد على نفسه لتبرير استبداده).

ولعل أطرف ما ذكر من تبريرات فى هذا الصدد ما ذكره عبدالرحمن الرافعى فهو يعتقد أن إقامة محمد على فى القلعة قد ساعدت من طرف خفى على دعم هذا الاستبداد فى تكوين محمد على فالقاهرة أمامه مبسوطة لعينيه بشوارعها وميادينها وقصورها ومبانيها وأشجارها وحدائقها كرقعة صغيرة تكاد تكون فى قبضة يدك وعلى بسطة ذراعك . . .

ولدينا تعليق بسيط فى هذا الصدد هو أن الإنسان يختار منذ البداية ما يناسبه ويستريح لما يجد صدى فى نفسه !!!

ونكتفى بهذا القدر من التعليقات، فما طرحه المؤرخون سواء الأجانب والعرب فيما يتعلق بمحمد على وجوانب شخصيته يحتاج إلى دراسات موسعة، لا شك أن المعلومات الواردة فى نصوص العديد من المؤرخين وتعليقاتنا عليها تشكل جانباً من رؤيتنا لشخصية محمد على ولكننا نسعى إلى بلورة تصور أكثر وضوحاً ومدخلنا إلى هذا دراستان تبدوان مختلفتين إلى حد كبير عن الدراسات السابقة فى عدد من النقاط الهامة : فالدراستان حديثتان نسبياً ، بالإضافة إلى أن منهج الدراسة يركز على البعد الفردى فى الشخصية ، كما أن الدراسة تقدم تصوراً نفسياً أكثر

عمقاً ، ورقياً ، وفيه توظيف للمنهج العلمى فى التناول على الأقل فى مستوى استخدام المصطلحات وطرح الإشكالات والشك المنهجى .

الدراسة الأولى : هى كل رجال الباشا : محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة لخالد فهمى ، **والدراسة الثانية** : مصر إبان حكم محمد على لعفاف لطفى السيد.

تتبنى رؤية الدراسة الأولى على وجود بنية تناقض فى مشاعر محمد على إزاء كل من الأتراك العثمانيين والمصريين ، ويلون هذا التناقض أفعال الباشا وتصرفاته وقبل أن نستعرض تفاصيل هذا التناقض الوجدانى علينا أن نعرفه أولاً : بأنه ثنائية فى الميول إزاء موضوع معين حيث يتواجد حب الموضوع وتدميره (أو كرهه) فى آن وغنى عن البيان أن الباحث لا يقدم تحليلاً نفسياً تقليدياً لتفسير التناقض الوجدانى، ولكنه يبرزه على المستوى المعرفى (بمعنى أدق تحليل البنية المعرفية للانفعال)، ويعرضه من خلال تحليل الدوافع المتعارضة إزاء كل من العالمين ، ونبدأ بموقف الباشا من العالم العثمانى فمن ناحية فمحمد على على ألفه بهذا العالم، ولديه معرفة واضحة ببنية الإمبراطورية العثمانية الاقتصادية والسياسية، كما أنه يعلم خيارات وبدائل اتخاذ القرار الملائمة لسياستها ،وليس هذا فحسب بل أنه يرى أن له دوراً فى صياغة مستقبلها ، بالإضافة إلى أن ثقافته وأحواله المعيشية متأثرة إلى حد كبير بالطابع العثمانى ، وفى نفس الوقت كان يزدرى ويشمئز من الطريقة التى تدار بها الإمبراطورية ونتيجة لهذا فهو لم يستطع إنقاذ السلطان من متاعبه، ورغم تسليمنا بوجاهة الفكرة والطرح المرتبط بهما، فإن التناقض لا يمكن أن يقف عند هذا الحد بل يغذيه رفض محمد على لتبعية السلطان ورغبته فى التمرد عليه خاصة، وأنه حجر عثرة ضد طموحاته.

يبرز التناقض الثانى ضد المصريين : فمصر ليست مجرد إمارة عادية من إمارات العثمانيين ولكنها إمارة غنية بالثروات الكامنة وهو يشعر أنه منتم لها بحكم

قدرته العملية على إدارة شئونها بكفاءة لصالحه ولصالح شعبه وقد عبر عن ذلك فى أكثر من موضع ، كما أنه كان يستنهض همم جنوده للقتال فى سبيل نصرة بلدهم وتحقيق المجد لها ، فى نفس الوقت كان للباشا وجهات نظر سلبية إزاء الشعب المصرى فهو يحتقر الفلاحين ويستخف بهم ولا يتقبلهم إلا على أنهم مصدر لقوة عاملة رخيصة ومنتجة ، والمصريون (أولاد العرب ، فى نظره ثلاثة أصناف الأول لا يهتم إلا بنفسه والثانى يخلو من أى إحساس بالتمييز والفهم الواعى رغم أنه يمكن أن يكون لطيفاً ومخلصاً والنوع الثالث فى وضعية مشابهة لوضعية الحيوانات.

ومرة أخرى نؤكد أن هؤلاء الحيوانات هم مصدر رخائه، ومن ثم لابد أن يحمل لهم أيضاً مشاعر إيجابية مصاحبة لمشاعره بالازدراء.

ولعل أحد المظاهر الدالة على تناقض سياسته التعليمية ، فتعليم المصريين كفكرة فى حد ذاتها يمكن أن يكشف عن حبه للمصريين – وهو يدعى ذلك – ولكن قصر التعليم على فئات محدودة يمكن أن تملك مواقع مفتاحيه يجسد نظرته السلبية إلى المجتمع المصرى ، وخاصة إذا عرفنا أنه كان يحاول استجلاب الأتراك للتعلم فى المدارس المصرية ، فهو لم يكن فى قرارة نفسه مسروراً من اقتصار المدارس على التلاميذ الناطقين بالعربية .

والطرح السابق مثير للتأمل وأهم ما فيه هذه المقدرة على الربط الدينامى بين البنية الأيديولوجية والمعرفية والبنية الشعورية وتقديم رؤية تتجاوز الخصال الثابتة للشخصية.

ونكتفى بهذا القدر من تحليل التناقض فى بحث خالد فهمى، وننتقل بإيجاز إلى إسهامه الثانى فى هذه الدراسة ، وهو أن الصراعات الدولية لا تتشكل فقط فى ضوء الظروف السياسية والاجتماعية ولكن هناك أبعاداً شخصية للصراع مثل التنافس على المستوى الفردى ويقدم الباحث فى هذا الإطار تحليلاً لعلاقة محمد على

بخسرو سعياً إلى إثبات تصوره.

والدراسة الثانية التى لفتت أنظارنا هى تلك الخاصة بعفاف لطفى السيد خاصة الفصل المتعلق بمحمد على الرجل ولعل أهم ما يميزها ما تقدمه على مستوى كل من المضمون والمنهج ، نبدأ أولاً بالمستوى المنهجى تشككنا عفاف لطفى فى معظم المعلومات المطروحة عن نشأة محمد على، وبالرغم من أننا لم نصل إلى حلول حاسمة فى كل القضايا التى طرحتها على الساحة فهى تدعونا من طرف خفى إلى مناقشة ما يطرح مناقشة نقدية ، والفكرة المحورية وراء هذا التشكك تتمثل فى أن محمد على يحاول أن يرسم صورة لنفسه لها مواصفات معينة تمنحه امتيازات أكبر فى علاقته مع ذاته والعالم الخارجى وخاصة الآخر الأوربى ، فهو يحدد تاريخ ميلاده على أساس أنه متطابق مع تاريخ ميلاد عدد من العظماء ومنهم نابليون ودوق ولنجتون بالرغم من أنه لا توجد مصادر مؤكدة تثبت هذا التاريخ غير محمد على نفسه ، والطريف أن بعض الباحثين مثل الياس الأيوبى يتشكك فى هذا التاريخ أيضاً (١٧٦٩) فلم يكن هناك سجلات للمواليد فى تلك الفترة ولكنه يضطر فى النهاية إلى قبول رأى الباشا على أنه مسلم به ، كما أنه يحاول أن يبرز يتمه سعياً إلى إثبات عصاميته تارة وابتسام الأقدار له تارة أخرى ، وتلك أمثلة فقط لما تطرحه الباحثة والإشكال الرئيسى أن هذا الإفراط فى نقد ما كان مسلماً فى كتب التاريخ التقليدية يمكن أن يحدث هزة عنيفة فى الأوساط العلمية ومن ثم يحتاج هذا المجهود إلى قراءة نقدية متعمقة من المؤرخين إلى تحقيق التوازن بين أدلة النفى والإثبات . فمحمد على على هذا النحو الذى تطرحه عفاف لطفى السيد رجل بلا تاريخ ، ومع هذا فهذا المدخل التشكيكى الذى يناقش كل شئ يشكل ميزة لا تبارى.

الإسهام المنهجى الثانى : أنها تحاول طرق مداخل ترتكز على نظريات علمية- وليس على صيغ إنشائية – فى تفسير بعض الأمور فهى لا تكتفى بالتأملات

المطروحة عن العلاقة بين البناء الجسمى والسمات النفسية، ولكنها تسعى إلى الاستعانة بالتخصصات المطروحة فى هذا الإطار وهى تستعين بأحد علماء الفرنولوجيا (أو علم فراسة الدماغ) للكشف عن العلاقة بين تركيب الجمجمة والذكاء، والعلاقة بين نظرة العينين والجاذبية ولا تعنينا نتائج هذا التحليل فى شئ، لأنه قد ثبت كذب ادعاءات هذا المنهج عموماً وأصبح مرفوضاً لدى كل المتخصصين ، ولكن المهم هنا هو توجه الباحثة إلى البحث عن علماء معاصرين فى تلك الفترة درسوا شخصية محمد على فى حدود إمكاناتهم.

أما إسهام الدراسة على مستوى المضمون فيدور حول محور مؤداه نشأة محمد على المتواضعة وجاذبيته ومهاراته الاجتماعية مع ذوى النفوذ وتهكمه وسخريته الفظة ممن هم تحت أمرته عندما تستدعى الضرورة إلى الحد الذى تتناسب معه الإهانات مع الموقع الطبقى للجماعة التى يتعامل معها ، كما تؤكد براجماتيته وميكافيليته وانفتاحه على الثقافات الأخرى وتسامحه الدينى، ولكن المبتكر حقا هى محاولتها إثبات أنه ينتمى إلى جماعة أقلية بكل المتضمنات السيكولوجية لهذا المصطلح . ويعد هذا الطرح جديداً ولم يسبق له مثيل وهى تحاول أن تثبت ذلك على النحو التالى : فمحمد على كان ألبانياً وبالتالى فهو عضو فى جماعة أقلية داخل الأسرة العثمانية ، فالألبانيون يتكلمون لغة مختلفة عن الأتراك ، ومع ذلك فهم مسلمون وهم مثلهم مثل الشركس يمثلون صفوة مقاتلى الإمبراطورية العثمانية فهم رجال جبليون ناريون ، غير منظمين وعدوانيون وشجعان ، وليس لديهم رؤية ثقافية حقيقية غير الخاصة بالأتراك. ولعل العامل الأخير هو الذى يساعدنا على فهم انصهار محمد على فى القالب العثمانى وتمسكه بهذا حتى فى تلك اللحظات التى يدعى فيها أنه يستخف ويقلل من شأن العثمانيين ، ولا شك أنه يمتلك علاقة مزدوجة مع العثمانيين تنطوى على الحب والكراهية معاً فى نفس الوقت الذى يخاف فيه من فقدان الهوية العثمانية ويفسر ما سبق تناقضه إزائهم ، وتردده

فى إجراء أى تغيير جوهرى يخرج عن النظام التقليدى العثمانى ، كما يفسر ذلك محاولة إحيائه للتراث الثقافى العثمانى جنباً إلى جنب مع محاولات التحديث . كما يمكن تفسير فشله فى التوحد مع المصريين إلى شعوره بالتوحد مع النموذج العثمانى. أخيراً تقدم الباحثة افتراضات مميزة عن الارتباطات بين السمات فهى تسلم بطبيعته الشكاكة فى كل شئ حتى أولاده. ولكن نظراً لارتفاع قدراته على الحكم الصائب، فإن شكوكه لا تتطور إلى بارانويا، ولكنها تجعله يلتزم الحذر فى تعامله مع الآخرين حتى أفراد أسرته .

ويتسق ذلك مع الدراسات الحديثة التى تشير إلى أن استمرار القدرة على الاستبصار بالواقع الخارجى قد يمنع تفاقم الاضطرابات المرضية إذا نشأت ، وهو فى حالتنا هذه يفرغ الشكوك من شحنتها العاطفية، ويجعلها قابلة لأن تخضع للاختبار المنطقى المتواصل ولكن تظل هناك مسافة بينى وبين الآخر لا يمكن معها الاندماج العميق معه.

وجدير بالذكر فى هذا المضمار أن هناك مقاماً مشتركاً بين البحثين يتحدد فى فكرة التناقض ويتميز البحث الأخير بأنه يقدم إطاراً تفسيرياً له . فقد استوعب الانتماء إلى جماعة الأقلية وعلاقته بالهوية فكرة التناقض وفسرها، ولعل هذه المحاولة فى حدود معلوماتنا أفضل المحاولات المقدمة لفهم شخصية محمد على على أسس علمية فى حدود ما قرأناه .

لاشك أن المعلومات والتصورات التى قدمها المؤرخون تعد حجر الزاوية فى تطوير رؤيتنا بناء ما تكشف عنه من دلالات، وهى فى حد ذاتها يمكن أن تقدم نواة لرؤية تحليلية للشخصية داخل السياق التاريخى ، وتكشف اختيارات الباحث وتعليقاته عن تقبله لتفصيلات بعض الرؤى ولكنها تحتاج إلى إعادة دمج داخل السياق النفسى، ولا شك أننا نتقبل هنا فكرة الاستبداد مع بعض التحفظات على

التفسيرات المقدمة ، واتصاف محمد على بالقلق والوسواس القهرية ، وذكاءه الحاد ودافعيته للإنجاز وكونه مصدر جاذبية بالإضافة إلى انتمائه إلى جماعة أقلية بكل ما يترتب على ذلك من تبعات منها التناقض الوجدانى . . . ننتقل الآن إلى محاولة رسم تخطيط لشخصيته خاصة ما يتصل بالسمات ذات الصلة بأفعاله كقائد.

سبق أن ذكرنا أن عناصر القيادة خمسة هى : خصائص القائد وخصائص الإتباع وخصائص النسق التنظيمى وخصائص السياق الثقافى وخصائص المهمة .

لاشك أن ما يهمنا فى المقام الأول هو خصائص القائد : وتشمل العناصر التالية : مفهوم القائد عن ذاته وتصوراته الضمنية عن الأتباع ومستوى دافعيته للإنجاز ومستوى الخبرة ونسق القيم وسماته العقلية والمزاجية والاجتماعية، وغنى عن البيان أن العنصر الأخير هو الأكثر أهمية فى هذا الإطار المبدئى ، ولن يمنعنا هذا من الإشارة إلى بقية الأجزاء المتفاعلة فى حينه حسبما يقتضى السياق.

وسنحاول تحديد سماته فى البداية فى ضوء المستوى الوصفى ثم ننتقل إلى المستوى التفسيرى المتصل ببعض السمات المحورية . هذه السمات المحورية هى التسلطية والميكيافيلية والكارزمية.

ويمكن تعريف التسلطية على النحو التالى :

" يعرف سويف التسلط بأنه شكل من أشكال توظيف السلطة لخدمة أغراض فئوية أو شكلية أو فردية (تحقيق الإثره) ، ويعتمد هذا التوظيف أساساً على عمليات القهر (أو العنف) فى إدارة شئون الجماعة ، ومؤد هذا التوضيح أنه كلما اتجه توظيف السلطة إلى خدمة جزء محدد من المجتمع بدلاً من خدمة المجتمع ككيان متكامل ، أصبحنا بصدد شكل معين ومستوى بذاته من التسلط ، ويزيد هذا الشكل وهذا المستوى وخصوصاً كلما ضاقت حدود الهدف المخدوم. وجدير بالذكر أن علماء النفس يتحدثون عن مجموعة من الخصال المزاجية والسلوكيات والتوجهات

الفكرية التى إذا تجمعت معاً أدت إلى تخليق نموذج الشخص المتسلط أو التسلطى فى إدارة علاقته بالآخرين ، وجدير بالذكر أن النظم الاجتماعية الأقرب إلى التسلط توفر مناخاً ملائماً لازدهار الشخصية التسلطية ، كما أن شيوع هذا النموذج فى المجتمع يمثل عاملاً من العوامل التى تسهم فى بقاء النظم الاجتماعية التسلطية وترسيخ جذورها " ولنحاول الآن أن نرى بعض الخصال المميزة للمتسلط النموذجى وسنجدها مميزة لمحمد على إلى حد كبير.

١- لديه توجه عقلى للتعامل مع كل شئ وأى شخص على أنه وسيلة للحصول على الأهداف .

٢- يقمع عداءه للعناصر المتميزة فى ثقافته أو الأكثر سلطة ويحوله إلى الجماعات الأضعف التى لا تعد مصدراً للخوف.

٣- ينظر إلى العالم الخارجى على أنه عالم مُهَدِد.

٤- يهتم بالأشكال والصيغ العملية للسلوك.

٥- عاجز عن إقامة علاقات وجدانية حميمة مع الآخرين .

٦- يتجه دائماً نحو ما يعد مؤهلاً لتسلق السلم الاجتماعى.

٧- لا يتورع عن التخلص من الآخرين عندما تقتضى الظروف ذلك .

٨- هذا التمسك الصارخ والصريح بكونه على القمة يمكن أن يصونه من شعوره الصامت والضمنى بأنه ينتمى إلى القاع.

٩- تحكمه رؤية طبقية إلى أفراد المجتمع المحيطين به .

١٠- يعتقد أن ما تحتاجه البلاد هو قادة شجعان لا يتعبون ويكرسون أنفسهم للعمل ويضع الأفراد ثقتهم فيهم (مثل محمد على).

١١- المبالغة فى تأكيد دور القوة والفظاظة فى السلوك .

١٢- لا يجب التسلطى أن يخضع للمساءلة ولكنه يحب أن يخضع الآخرون لها إلى تسلطية محمد على كحاكم . إلى هذه التطبيقات علينا الإشارة إلى وجود ثلاث آفات اجتماعية تابعة لتسلطية وتغذيها هى الإفراط .

١٣- يعتقد أن المحيطين به لا يفهمون لسوء الحظ حقيقة ما يدور حولهم قدر فهمه هو .

١٤- لا يرضى بأنصاف الأشياء والحلول الوسط إلا مضطراً .

١٥- الطاعة واحترام السلطة هما أساس أى حكم من وجهة نظره.

١٦- يرى أنه لا مكان للرعاع بين أصحاب الأخلاق الرفيعة.

١٧- يعتقد أن المجتمع يحتاج إلى الصناع والزراع ورجال الأعمال أكثر من حاجته للمفكرين .

١٨- يؤمن بضرورة اتخاذ المزيد من الاحتياطات للحفاظ على النظام ومنع الفوضى.

١٩- ينظر باستعلاء لمن هم أقل منزلة .

٢٠- يعتقد أن هناك مؤامرات ضده تحاك فى الظلام.

ولا شك أن هذه التسلطية إذا امتزجت بالميكيافيلية فإنها تشكل خصالاً بالغة الخطورة لاشك أن المتتبع لتاريخ محمد على سيجدها ماثلة فى سلوكياته وخاصة فى سلوكه مع من يشعر أنه قد أصبح مناوئاً له أو لا يسير وفق خطته . ولا نستطيع أن نحدد بدقة حدود استيعابه لكتاب الأمير لميكيافيلى الذى ترجم خصيصاً له ولكننا فى نفس الوقت لا نستطيع تصديق بأنه لم يكترث لهذا الكتاب لأنه يعلم الكثير مما تحويه دفتاه دون قراءته !!! وفيما يلى هذه الخصال :

١- يتحول البشر إلى عرائس يتم توجيهها إلى الهدف المطلوب وفق خطط صاحبها

الذى يتسم بأنه فى غاية الدهاء.

٢- هناك افتقاد واضح للروابط الوجدانية.

٣- يتحول الانقسام بين الداخل والخارج إلى قدر من الواقعية القهرية المفرطة التى تعامل أى شئ وكل شخص على أنه يمكن توظيفه فى خدمة المتسلط ثم التخلص منه بعد ذلك.

٤- يحترم العمليين أمثاله ، ولكنه يكرههم فى قرارة نفسه.

٥- ذكاؤهم المرتفع بالإضافة إلى غياب الوجدان والمشاعر يؤدى بهم إلى سلوكيات فى منتهى القسوة.

٦- يتمنى أن يحكم سيطرته على المجال من حوله ولا يسعى للتعلم من الكتب ولكن من الخبرة .

٧- لديه نظرة طبقية حادة فى التعامل مع البشر.

٨- يغتصب القوة لكى يمارس أفعالاً لا تحتاج إلى مزيد من القوة .

٩- تحكمه رغبة عنيفة وتواقة إلى التنظيم المصحوب بوسوسة مضمونها السيطرة على العالم.

١٠- يميل إلى استمالة المؤسسات الدينية والعلماء لأغراض الاستغلال والسيطرة .

١١- يرفض الصعف رفضاً قاطعاً .

١٢- يتسم بالآلية فى إدارة مشروعاته ، ولا توجد قوة روحية مصاحبة .

١٣- تسيطر عليه الرغبة فى التعبير عن القوة أمام أقران مكافئين لهم فى القوة .

١٤- عليك أن تكرس طاقتك للوصول إلى أهداف أبعد من أهدافك الأصلية حتى

تحقق ما تريد .

وفيما يلى بعض التطبيقات التى تعكس تسلطية محمد على ونتائجها وقبل أن نتطرق إلى هذه التطبيقات علينا الإشارة إلى وجود ثلاث آفات اجتماعية للتسلطية هى الإفراط فى المركزية وتغليب الاتباعية وتكريس المحسوبية وفيما يلى أمثلة موجزة تحدد بعض ملامح ما سبق ذكره.

١- تلاعب بالقوى السياسية المختلفة فى الفترة التى سبقت تولية الحكم وإحداثه الفرقة بين المماليك من ناحية ، وبين العلماء من ناحية أخرى حتى تضعف قواهم ويتم تنصيبه والياً .

٢- النظر إلى المصريين من أعلى وتوليهم الوظائف الروتينية فقط بينما كانت المراكز الحيوية من نصيب الأتراك.

٣- الصلاحيات الحكومية مركزة فى يد الحاكم ورؤساء الإدارات كانت صلاحياتهم بالنيابة ويحتاجون إذن الحاكم فى كل شئ وللحاكم الحق فى محاسبة موظفيه ولكن العكس غير صحيح.

٤- السياسة موجهة من البلاط وحاشية الحاكم ، استغل المسئولون عن الإدارة قربهم من الباشا لخدمة الأصدقاء وعائلاتهم.

٥- استفاد محمد على من خاصية التماسك العرقى واستعان مجموعة من مواطنيه يضمن تبعيتهم له فى ظل الحرص على إرضاء رغباتهم وأبعادهم عن الأهالى.

٦- المشروع الثقافى والتعليمى فوقى وطبقى فقد أبقى محمد على الأزهر على حاله وفصل جزءاً من المصريين ، وجعلهم صفوة منفصلة عن المجتمع خلفت متعلمين منبهرين بالنموذج الأوربى ، وخلق انفصالاً بين التعليم التقليدى والحديث.

٧- تجربة المجلس الأعلى ومجلس الشورى ليست إلا امتداداً للتسلطية فمحمد على صاحب هذه المجالس وهو خالقها وأعضاء هذه المجالس تابعون لولى الأمر ومصدر النعم وتدريب أعضاء مجلس الشورى على سبيل المثال ينبغى أن يسير فى اتجاه إلغاء كل مبررات الانقسام فى الرأى ويفترض أن تنتهى المداولات إلى رأى يقره الجميع !!

وجدير بالذكر أن مفهوم الشورى يتواجد فى حيز هيمنة مفهوم الدور المركزى للقائد فى عملية النهضة ، وهو ما كان يعنى أمرين : أن المبادرة الجمعية للأفراد تتم فى إطار المبادرة الفردية للقائد ، الثانى أن أراء المشاركين لا تمتلك تجاه الحاكم أية صفة إلزامية وإن كان الفرد نفسه ملزماً بالمشاركة[٢] .

٨- رقابة الحاكم الصارمة لكل نشاطات الدولة ومتابعته التفصيلية لها بما فى ذلك أفراد البعثات التعليمية .

٩- مركزية دور العنف فى فكر محمد على ومن أقواله " لقد أرغمت دوماً على استخدام العنف مع الشعب من أجل صالحه ومن أجل دفعه نحو أن يعمل لصالحه" وموارس العنف فى جباية الضرائب وفى تنفيذ المشروعات الزراعية وشق الترع وفى تجنيد الأهالى ودفعهم إلى التعليم.

١٠- مذبحة المماليك كنموذج لأقصى درجات التسلط واستعانة محمد على بأعوان معروف عنهم قسوتهم الشديدة وتنكيلهم بضحاياهم.

١١- الإسراع فى نقل التكنولوجيا وبناء المصانع دون أن يصحب ذلك ومناخ فكرى وثقافى يدعم هذا التوجه فى نفوس أبناء الشعب.

١٢- الإكراه الإجبارى لطوائف الشعب على خدمة الأهداف التوسعية للدولة الجديدة

---

(٢) لا يعنى هذا إنكار أهمية التجربة فى حد ذاتها وكونها دليلاً على توجه إصلاحى .

وارضاء تطلعات الحاكم ورغبته فى الدخول فى سباق القـــوة والســيطرة ، ورموز هذا السباق.

وفيما يلى عدد من الرؤى التفسيرية لهذه البنية التسلطية .

أولاً : ضعف القوى السياسية الموجودة على الساحة فقد نجح محمد على إمـا فى القضاء عليها أو فى استقطاب عناصرها.

ثانياً : البنية الجغرافية لمنطقة وادى النيل والتى تقتضى أحكـــام الســيطرة والرقابة بهدف ضمان توصيل مياه الرى فى فترات التحاريق وحماية الأرض مـــن غوائل الفيضان ، فتجنب المفاجآت يتطلب تنظيماً يتمتع بكفاءة عالية وقـــدرة فائقـــة على التحكم ومن ثم لابد وأن يكون مركزياً وتحت إشراف دائم قوى.

ثالثاً : وجود بنية فكرية سائدة فى ذلك الوقت تدعم نظرية الرجـــل العظيـــم والحاجة إلى الاستبداد بالإضافة إلى ما قام به أعضاء البعثات العلمية مـــن دعايـــة لطريقة حكم محمد على . وتصل المغالاة فى هذا الطرح إلى حد مؤداة إمكان الجمع بين الاستبداد والحرية فى توليفة عبقرية.

رابعاً : رسوخ مفهوم الأب المسئول مسئولية مطلقة عن رعاية أبنائه غـــير القادرين على فعل شئ دونه فى البنية الأيديولوجية لمحمد على.

خامساً : انتماء محمد على إلى جماعة أقلية على النحو الذى وصفته عفـــاف لطفى السيد وسعيه إلى التوحد بالجماعة المسيطرة عن طريق الدخول إليها فى عقر دارها كان مصدراً لشعور دائم بالتهديد لدى محمد على تحت ترجمته فى هذا الشكل التسلطى الموجه أساساً إلى جماعة الأقلية التى ينتمى إليها محمد على فى مرحلـــة صراعه مع الدولة العثمانية (وهى مصر بديلاً عن ألبانيا) مبعثه كراهيـــة جزئيـــة لهذا المجتمع الذى يمنعه من تحقيق هذا الحلم بالرغم من أنه قد يكون أداته المساعدة على الوصول إلى الهدف ، ويؤدى الفشل اليائس من التوحد مع الهوية الأقوى إلـــى

الاكتفاء بمحاولة إقناع الذات بالاندماج فى جماعة الأقلية.

سادساً : اتصاف الحكام فى الشرق كله بالتسلط والاستبداد والمسألة فقط اختلاف فى الدرجة والتوجهات.

سابعاً : السمات النفسية المميزة للقومية الألبانية ، يضاف إليها ظروف تنشئة محمد على التى مازلنا نعتبرها حتى الآن منطقة غامضة .

ثامناً : انفتاح محمد على على الخبرات الأجنبية وامتلاء مصر بجنسيات مختلفة تشير إلى جماعات متنوعة من الأقليات المعزولة نفسياً عن بعضها عن البعض الآخر بالإضافة إلى تعجل محمد على تحقيق إنجازاته دفع المجتمع فى طريق الهامشية الحضارية فالتغيرات الحضارية المفاجئة من شأنها أن تثير قدراً من الخلط والضياع والشك بالنسبة للقيم والمعايير الاجتماعية السائدة مما قد يترتب عليه انشغال الشعب بهذه القضية وتنظيم أفعاله إزائها وأحياناً يكون المخرج الارتكان إلى الحاكم القوى لتفادى الشعور بعدم الأمان .

تاسعاً : تصورات سيكولوجية تحتاج إلى اختبار علمى مدقق مؤداها أن الحاجة إلى السيطرة يقابلها حاجة إلى الخضوع وأن وجود هذه الحاجة إلى الخضوع يسمح للحاجة الأولى بالاستمرار سواء كان هذا على المستوى الشعورى أو غير الشعورى.

ولعله من المناسب أننا لا نملك الفرصة الآن لترجيح رؤية عن الأخرى مما يضعف موقفنا البحثى ولكن الباحث يبدو متحمساً مرحلياً بدرجة أكبر للفكرتين الخامسة والثامنة لارتباطهما بالتوجه الأكاديمى للباحث ليس أكثر بالإضافة إلى أن بحوث سيكولوجية الأقليات لها ثقلها ومصداقيتها على الصعيد العلمى ، ويحتاج الأمر إلى تأملات أعمق فى مرحلة لاحقة.

إذا كانت السمتان السابقتان تعكسان أسلوب الممارسة السياسية فالتأثير

الكارزمى لمحمد على ساهم إلى كبير فى الحفاظ على استمرار الحكم فى ظل اتسامه بالتسلطية .

ويمكن تعريف الكارزما ببساطة بأنها تلك المؤثرات الغامضة التى تدفع الأشخاص إلى الانجذاب إلى صاحبها ويبدو أن هذه الكاريزما ترتبط بالقدرة على التأثير فى الآخرين من خلال التفاعل وجهاً لوجه . وجدير بالذكر أن هذه الكارزما تقوم على إحساس ذاتى عميق واستثارة مباشرة للانفعالات .

ويمدنا القياس التاريخى وهو أسلوب كمى يسعى إلى البحث عن المؤشرات التى تشيع بين الشخصيات المعروف أنها تملك هذا التأثير، ولدينا هنا عدد من المؤشرات المستخلصة من أبحاث متنوعة ينطبق معظمها على محمد على :

١- الجاذبية الجسمية.
٢- الاندفاع حول نسج قصصى وحكايات حول هذه الشخصية.
٣- كثرة القيل والقال عن هذه الشخصية وتضارب وجهات النظر فيما يتعلق بتحليل هذه الشخصية.
٤- الانتصارات العسكرية المتتالية.
٥- طول مدة الحكم.
٦- القابلية لأخذ المبادرة الهجومية فى القتال.
٧- الفحولة وقوة الرغبة الجنسية.
٨- اعتبار الحاكم موحداً للدولة فى اتجاه هدف عظيم.
٩-التفتت السياسى السابق على تولى الحكم.
١٠- القيام بأفعال قد تصنف على أنها وحشية أو غير أخلاقية .
١١- مهاراته كسياسى .

ولعلنا نلاحظ جاذبية محمد على التى أجمع عليها عدد كبير من المؤرخين

والمركزة فى عينيه ، والقصص التى تجعله يقترب من مصاف الأنبياء وتضارب وجهات نظر المؤرخين السابق الإشارة إليه وانتصاراته العسكرية المتتالية فى الجزيرة العربية والسودان واليونان وسورية والأناضول ، وأخذه المبادرة الهجومية فى معظم معاركه، ولا ريب أن اعتبار الحاكم موحداً للدولة فى اتجاه هدف عظيم من أشد الوسائل تأثيراً على الرأى العام فى اتجاه دفعه نحو تأييد الحاكم . حيث يشعر الناس أنهم يشاركونه فى كل مكاسبه. ومن نافلة القول الإشارة إلى تفتت القوى السياسية قبل فترة حكم محمد على (المماليك – السلطة العثمانية) كما أن جعبته لا تخلو من أفعال شائنة مثل مذبحة المماليك ، كما أنه معروف عنه ولعه بالنساء.

المعروف أن السياسى يحتاج إلى مهارات خاصة لتوجيه الموقف السياسى إلى بر الأمان ولكى يقوم بذلك عليه أن يكون قادراً على التصرف بما يتناسب مع هذا الموقف وليس فى ضوء ما يشعر به خاصة إذا كان يتعامل مع قوة سياسية لابد أن يحسب حسابها بالإضافة إلى صبره على مواجهة مشقة المواقف المحيطة حتى يحين الوقت المناسب الذى يمكن فى ضوئه تعديل الموقف لصالحه ويتطلب هذه المهارات ثلاثة سمات أساسية هى :

١- **مراقبة – الذات** : ويهتم الأفراد المرتفعون على هذه السمة بالملائمة الموقفية لأفعالهم كما أنهم يتسمون بالحساسية المرهفة للمنبهات والعلامات التى يعتبر الآخرون فى ضوئها الأفعال ملائمة ، كما أنهم يمتلكون القدرة على التحكم فى تعبيراتهم الجسمية والوجهية من أجل عرض ذواتهم بالطريقة المتناسبة مع الموقف، بالإضافة إلى امتلاكهم مهارات خاصة فى التمثيل.

٢- **الوعى بالذات العامة** : يشير الوعى بالذات العامة إلى حساسية الفرد نحو التعامل مع سلوك الآخرين الموجه نحو رصد وتأمل ذواتهم.

٣- **الصلابة النفسية** : وتعنى هذه السمة بأن من يمتلكونها لديهم القدرة على التأثير فى الأحداث التى يخبرونها ويشعرون بالانتماء العميق إلى النشاطات التى يقضون فيها أوقاتهم ، وينظرون إلى التغيرات فى حياتهم على أنها فرص للتحدى من أجل مستقبل أفضل.

ولا شك أن قارئ الوجوه المتميز محط إعجاب القناصل والخبراء الأجانب القادر على خلق التحديات فى كافة المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية وتحقيق الإنجازات المتميزة لابد وأن يكون ممتلكاً للسمات الثلاثة.

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن سمات الشخصية المميزة لشخصية محمد على فالسياق لن يتسع للمزيد من التأملات بالرغم من أن الجعبة تتسع لمزيد من التأملات ولعنا هنا اكتفينا بالسمات المرتبطة بممارسة نشاطه السياسى وتبقى أمور عدة لم تطرق بعد مثلاً مظاهر الإضطراب النفسى الخفيف التى رصد بعضها المؤرخون ومنها سرعة الغضب وقلقه النفسى ووساوسه القهرية وتقلباته النفسية ولعلنا نقول كلمة أخيرة فى هذه النقطة تتمثل فى أن الشعور بفقدان الأمان والتهديد ظل ملازمين لمحمد على طيلة حياته ومولدين لتوترات هائلة وبالرغم من أن صلابته النفسية أسعفته قليلاً فى تحمل الضغوط النفسية المتلاحقة فإنها لم تمنع خروج بعض مظاهر التعب النفسى على السطح ، نقطة أخرى لم نعلق عليها لأنه لا يختلف عليه اثنان هى قدراته العقلية ولا مجال لتفصيل القول فيها الآن .

بقى أن نشير إلى أننا قد تعرضنا إلى مفهومه عن ذاته وتصوراته الضمنية عن الأتباع فى موقع سابق والذى يؤكد التسلطية كسمة متطلبة لشعب يحتاج إلى التعلم ، وطموحه الذى لا يعرف حدود يجعل مستوى دافعيته للإنجاز غير قابل للمناقشة ويزعم الباحث أن هذه الدافعية لم تكن متوقفة عند حدود مصر فقط ، بل كانت مصر بوابة إلى الإمبراطورية العثمانية نفسها ، ويغذى هذه الدافعية طاقة

عقلية لا يستهان بها ، ولا شك أن مستوى خبرته السياسية كان متنامياً على نحو لم يسبق له مثيل بالرغم من أن حساباته على المدى الطويل لم تكن فى صالحه والسؤال هنا هل أسهم نقص خبرات التعلم من طرف خفى فى إجهاض تجربته ؟ سؤال معلق يحتاج إلى إجابة .

نسق القيم هو محطتنا الأخيرة ، غنى عن البيان أن تعزيز المكانة والحصول على السلطة بأى شكل كان كامناً الدافعية الموجهة لسلوك محمد على ولكن هذا لا ينفى استقرار قيم الإصلاح فى ذهن محمد على ولعلها لم تأخذ شكلاً متبلوراً فى البداية وقبل استقراره فترة حكمه ولكن مع جنى ثمار تجربته أثناء حياته بدأت النزاعات التسلطية تخف ويحل محلها شعور بالانتماء والالتزام العميقين ليس إلى المشروع الفردى فقط ولكن إلى البلد التى تحتضن هذا المشروع مع الشعور بالمسئولية عن أجيالها القادمة والحرص على توجيه النصح والإرشاد لهم لقيادة مستقبلهم ، ومن يتتبع خطبته إلى مأمورى الحكومة وهو فى سن الثمانين يلمح هذه المعانى [٣].

أخيراً وليس آخراً هناك عدد من الملاحظات المنهجية التى تستحق التأمل :

١- اعتمادنا على المؤرخين كان أكبر بكثير من اعتمادنا على نصوص محمد على نفسها وتحتاج الأخيرة إلى عناية خاصة من حيث اختيار أدوات التحليل المناسبة ولعل الأساليب المطورة فى تحليل المضمون قد تسعفنا.

٢- جزء غير يسير من المادة التاريخية عن محمد على يعتمد على أقواله

---

(٣) يمكننا أن نلاحظ أيضاً : تحول لغة الإدارة من التركية إلى العربية ، وزيادة الاعتماد على المصريين كموظفين وعسكريين، ومحاولة خلق بدايات مناخ ليبرالى (حتى لو كان على مستوى الادعاء) ويتجسد فى طبع كتاب تلخيص الإبريز فى تلخيص باريس وتجربة المجالس المعاونة فى الحكم فى نفس التوقيت تقريباً ، حيث تؤكد هذه المظاهر المعانى السابقة .

الشخصية وما سجله المؤرخون منها وهذا يدخلنا فى ضرورة العناية بدراسة هـــذا النوع من التسجيل وما تحدثه آليات الذاكرة فى هذا المضمار.

٣- تحتاج جهود المؤرخين إلى تقصى وتحليل على نحو أعمق يتيحان قدرة أفضل على الربط بين المنظور التاريخى والنفسى، فالنقلة مـــن المؤرخيـــن إلـــى أطروحاتنا لم تكن بالسلاسة الكافية.

٤- هناك حاجة ملحة إلى التبحر فى ميدان علم النفس التاريخى من قبـــل المتخصصين فى المجالين.

٥- هناك مصادر أخرى للدراسة يمكن الاستعانة بها كوسائل معينـــة مثـــل الأمثال الشعبية والنكت السياسية والفنون الأدبية المختلفة ولكن الحذر هنـــا وارد لأن الدلالات المستخلصة غير مباشرة.

وختاماً نود التنويه بأنه على الرغم من المعاناة الشديدة لأخراج هذا البحـــث إلى النور فهى خبرة ممتعة لمن ينشد أهدافاً لها وزنها فى الحياة.

obeikan.com